الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان –

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم : اللّغة العربية وآدابها

الانقراض اللّغوي

قراءة تركيبية في مستقبل اللّغة العربية

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في فقه اللّغة

إعداد الطالبة :

فاطمة الزهراء بن يوسي

إشراف الأستاذ :

د. عبد الجليل مصطفاوي

لجنة المناقشة :

– أ.د. سيدي محمد غيتري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
– د. عبد الجليل مصطفاوي	أستاذ محاضر	جامعة تلمسان	مشرفا
– أ.د. عبد القادر سلامي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
– أ.د. التيجيني بن عيسى	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
– د. المهدي بوروبة	أستاذ محاضر	جامعة تلمسان	عضوا

الموسم الجامعي : 1428-1429 هـ/ 2007-2008م

مقدمة

اللغة نعمة من أخطر النعم...إنها بوابة الحضارة ، تتأثر بالروح السائدة فيها كما بإنجازاتها وآلياتها ، وفي اللغة ينعكس النمط الحضاري السائد في مجتمع من المجتمعات ..كما أن الحضارة تتأثر باللغة : بأنماطها التعبيرية وقدراتها الإبداعية التي اكتسبتها عبر تاريخها الطويل .

لعل إحدى المؤشرات المهمة على تحضر شعب من الشعوب هو علاقته بلغته : كيف ينظر إليها ؟ وكيف يتعامل معها ؟ ثم كم هي قدرات لغته على التعامل مع نمط الحياة السائد ؟

و السؤال هنا : أين يقف عرب الألفية الجديدة لغويا ؟

اللغة العربية من هذه الزاوية في مأزق ؛ فهي تعيش في ظل حضارة ليست من صنع أبنائها، حضارة شكلت لنفسها نظاما فكريا، وتصورات عقائدية عن الكون مخالفة في كثير من نواحيها للنظام الفكري الذي عاشت في ظله اللغة العربية، كما أن هذه الحضارة ابتدعت علوما و مناهج للبحث العلمي لم تألفها الحضارة العربية سالفا، وأنجزت منجزات صاحبتها عادات و تقاليد خاصة، هذا كله بدا غريبا عن العرب، وشكل مأزقا تواجهه اللغة العربية يوما بعد يوم. أزمة التخلف غيبت الدور الحضاري الفعال للعرب: الذي انعكس بدوره على تعامله مع اللغة، ليبدأ عصر الشروح، وشروح الشروح. ومن يقرأ التاريخ الإسلامي جيدا يجد أن توقف العرب عن الاهتمام بلغتهم تزامن مع الانهيار العام لكل مظاهر الحضارة التي شادوها عبر مئات السنين.

لم يقف الأمر عند هذا الحد.. بل جاوزه إلى حروب توالت عليها،ولا تزال..لقد تعرضت وحدها من بين لغات العالم لكل ما ينصب عليها من معاول الهدم ويحيط بها من دسائس المترصدين لها؛لأنها قوام فكرة وثقافة وعلاقة تاريخية.

أثخنت لغتنا..والسهام نحوها كثيرة ؛من دعوة إحلال اللغات الأجنبية محلها،إلى المناداة بتبني العاميات .

أما حديث اليوم فغيره بالأمس؛إذ السهم القادم ليس كبقية السهام،إنه "الانقراض اللغوي"؛ ففي طبعة جديدة ل"أطلس اللغات المهددة بالانقراض"الذي نشرته اليونسكو،حددت المواقع الساخنة التي يكون فيها التنوع الثقافي واللغوي في حالة خطر. وبالاستناد إلى الأطلس المذكور، هناك اليوم ثلاثة آلاف لغة مهددة بالخطر في العالم،بمستويات مختلفة،أي ما يعادل نصف لغات كوكبنا،ففي إفريقيا مثلا:250 لغة مهددة،وبين 500 إلى 600 لغة في مرحلة تقهقر من أصل 1400 لغة محلية .
وفي أمريكا الشمالية:من أصل 104 لغة هندية-أمريكية هناك 19 في حالة احتضار، و28 لغة مهددة.وفي الولايات المتحدة الأمريكية لاتزال 150 لغة هندية قديمة في حالة تشبه الموت.

ما زاد الأمر تفاقما هيمنة الانجليزية على وسائل الإعلام والاتصال العالمية.ولندع صراحة الأرقام تكشف لنا عن مدى سطوة اللغة الانجليزية في المجالين المذكورين:

65% من برامج الإذاعة باللغة الانجليزية.

70%من الأفلام ناطقة بالانجليزية.

90% من الوثائق المخزنة في الانترنت بالانجليزية.

85% من المكالمات الهاتفية الدولية تتم بالانجليزية.

هذا في مجال الإعلام و الاتصال ..أم على صعيد السياسة والاقتصاد فلا يخرج موقف الولايات -القطب اللغوي الأوحد بلا منازع – عن كونه صدى لمصالحها الإستراتيجية الداخلية منها أو الخارجية .

من هنا كان الانقراض اللغوي إضافة جديدة لعصر جديد؛ تبحث فيه اللغة العربية عن مساحة أرحب وفضاء أوسع.

الإشكالية:

في ظل العولمة وثورة المعلومات ، تتعرض العربية لحركة تهميش نشطة، بفعل الضغوط الهائلة الناجمة عن طغيان اللغة الانجليزية على الصعيد السياسي و الاقتصادي والتكنولوجي و المعلوماتي ، وتشارك العربية في ذلك معظم لغات العالم ، إلا أنها تواجه تحديات إضافية أفرزتها جدلية العلاقة بين الأنا والآخر .

وفي ظل حالة عدم التعين هذه ، تبرز إشكاليات لغوية ،آخر تجلياتها "الانقراض اللغوي ". من هنا كانت الحاجة ماسة إلى فك إشكالية تبحث في مستقبل اللغة العربية من منظور تركيبي ، في ضوء التلوينات الجديدة للمواقع الساخنة التي يكون فيها التنوع الثقافي في حالة خطر .

الفرضيات :

البحث في العلوم الانسانية و الاجتماعية رهين فرضيات تصاحبه عبر مفاصله.

ودراستنا تحاول ملامسة بعض الفرضيات التالية :

1. لن تكون العربية بمنأى عن الأخطار اللغوية القادمة، و مستقبلها سيكون في أفضل احتمالاته مزيدا من الانكماش والتهميش .
2. امتلاك العربية لخصائص جوهرية في فقهها،جعلها صاحبة توازن وتوسط لغوي،هذا كله يمكنها من تجاوز الحواجز اللغوية الجديدة، وفي مقدمتها الانقراض اللغوي.
3. حاجة العربية إلى مراجعات نقدية و تقويمية تجعلها أكثر حضورا وتفاعلا و انسجاما مع مستجدات الحضارة.

خطة البحث:

إشكالية بافتراضات تصاحبها كانت بحاجة إلى خطة ترسم المسار، وصولا إلى الهدف ...

توالت الخطط وتغيرت..و بعد التحوير و التطوير، اتضحت معالم البحث بصورتها التالية:

- الفصل التأسيسي: و يحمل قراءة لأسئلة الانقراض و أهميتها، محاولين رصد إحصاءات رقمية تظهر تضاريس أطلس اللغات ضمن معطيات العصر الجديدة.
- الفصل الأول: يقدم مقاربة للعولمة في بعدي الماهية و الجذور،ثم بحث في تفاصيل الظاهرة و نتائجها، ليختتم المحور بمفصل الموقف من العولمة.
- الفصل الثاني: حاولنا فيه إثبات جدلية العلاقة بين العولمة و الهوية، وصولا إلى سؤال اللغة و العولمة.
- الفصل الثالث: و فيه إجابة عن سؤال حاضر العربية و العولمة،بحثا في خصائص لغتنا و مقاربة لنسيج بنيتها المعرفية.
- الفصل الرابع: كان البحث فيه تأملا في المظاهر النفسية للمشكلة اللغوية وتمعنا في أسبابها، مع محاولة لتقديم جملة من الحلول و الاقتراحات.
- خاتمة: و فيها رصد لنتائج الدراسة.

المنهج:

تعدد جوانب الإشكالية اللغوية، و اتساع نطاق تداخلها مع أنساق معرفية أخرى ، و زيادة تعقدها ، و حضورها التاريخي في عصر المعلومات. هذا كله يجعل هكذا دراسة بحاجة إلى أكثر من منهج.

سيتخذ البحث في جزئه الأول من المنهج الوصفي التحليلي سبيلا لابد منه،ما دامت الغاية وصف الظاهرة الواحدة وتحليل مضامينها .

المنهج الاستراتيجي حاضر هو الآخر لنطرح من خلاله خطة معرفية تغييرية لتجاوز الواقع اللغوي المسدود.

ثم المنهج التفكيكي و الذي نفكك بواسطته رموز العربية ضمن رؤية بنيوية تسعى للتماهي مع مدلول التوسط والتوازن اللغويين.

أهداف البحث:

لكل بحث وجهة هو موليها.. و محط رحاله أهداف يصبو إليها،وعن هذا البحث فإنه يسعى جاهدا لملامسة الآفاق التالية:

1- تشخيص الواقع العالمي ثقافيا ولغويا.

2- قراءة مستقبلية معرفية للتحديات التي ستواجه الأمة العربية (ضمن البعدين الثقافي و اللغوي).

3- تفكيك البنية الثقافية للمجتمع العربي،وصولا إلى خط اللغة.

4- الحفر في العولمة اللغوية: المفهوم – الوسائل – الأهداف.

5- النظر في مصطلح "الانقراض اللغوي" ومحاولة تفكيك مضامينه المعرفية.

6- البحث في جدلية اللغة العربية والانقراض اللغوي.

7- قراءة في الخصائص الجوهرية للغة العربية من منظور فقه اللغة،مما قد يثبت عالميتها (التوسط،التوازن).

8- قراءة في عوامل التجدد الكامنة في اللغة العربية.

9- البحث الموضوعي في أسباب التدهور اللغوي،وطرح آليات جديدة تنمي قابلية الانتماء للغة العربية.

هي محاولة أولى للبذر..نرجو الله أن تكون الغلة صالحة.

تلمسان في:12 ربيع الثاني1428هـ الموافق ل:31 مارس 2007م

المدخل

الانقراض اللغوي

أسئلة ناطقة..إجابات صامتة

الكلمة أول علم تلقاه أبو البشرية ﴿ **و علم آدم الأسماء كلها** ﴾♦،... و تلونت في عمرها السرمدي – إذ ترافق الإنسان من بدء الخلق- بألوان الثقافة و المعرفة و المهارة. فحق لها أن ترفع صاحبها إلى مكان الصدارة، و ارتبطت بالكهانة و القداسة، و بالوساطة بين الله والإنسان.

﴿**إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾♦♦، بالقول ينشئ الله ما يشاء، وبالقول يحاور الإنسان لينشئ ما يشاء، و قد أعطاه اللغة ليحقق مشيئة الإنشاء ... بهذا يظهر الفعل تاليا للقول، فالقول ينشئ الفعل، أي الحياة1.

ثم ماذا؟

لم يكتف الإنسان بفعلي التفكير و التعبير، بل زاد عليهما فعل التدبير خلافة في الأرض وتعميرا لها... فكانت قصة الحضارة، التي هي "نتائج فكرة جوهرية تطبع على المجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي يدخل بها التاريخ."2

المنطلق إذن، فكرة ... من هنا تغدو الأفكار رأس مال الأمة الحقيقي، إذ لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من "أشياء"، بل بمقدار ما فيه من "أفكار".

ولعل الانطلاقة الصحيحة تكون من قول (د. مصطفى ناصف):" استقر في الذهن-مع الأسف- التمييز الغريب بين اللغة و الثقافة ... و خيل إلينا أن أمور الشخصية و الثقافة وأسباب الحضارة أكبر من الاهتمام و التدقيق في مدلول الكلمة"3.

إذا كانت الحضارة تتطلب من كل شعب أن يرتقي بفكره إلى مستوى الانسانية، فإنها تدفع باللغة إلى ذات المستوى، يقول (د. زكي نجيب محمود): "لست أتصور لأمة من الأمم ثورة فكرية

♦ البقرة 31/1.
♦♦ النحل 40.39.38/16.

1 ينظر: د. أسعد علي و د. فكتور الكك، جذور العربية فروع الحياة، ص 81.
2 مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ص 54.
3 د. مصطفى ناصف، اللغة و التفسير و التواصل، ص 89.

كاسحة للرواسب، إلا أن تكون بدايتها نظرة عميقة عريضة تراجع بها اللغة وطرائق استخدامها، لأن اللغة هي الفكر، و محال أن يتغير هذا بغير تلك"1.

و كل مراجعة حضارية تتناسى فضاء اللغة و تتنكر له، محكوم عليها بالفشل الذريع ، و ثورة المنهج بحاجة إلى ثروة اللغة، لا جدال!.

" فاللغة ليست وعاء جامدا و لا ناقلا محايدا، لكنها عنصر فاعل و مؤثر في المحتوى و المضمون الذي تقوم بنقله و تبليغه"2.

و مهمة اللغة أن تجعل الموجود موجودا منكشفا بالفعل و أن تضمنه من حيث هو كذلك3.

بل إن اللغة تتجاوز مهمتها كأداة، لتتحول إلى ضابط حضاري كامل.

لكن، متى؟

حين تكون للحضارة معطيات فكرية متكاملة متصلة بالشرارة الإلهية الخلاقة –على حد تعبير (توينبي)– ، أو عندما تكون هي أداة المعجزة الخالدة كما هو شأن القرآن في الحضارة الإسلامية4.

الواجب يفرض علينا أن نرعى واقعا جليا، و جوهريا، هو أن ميزانية التاريخ ليست رصيدا من الكلام، بل كتلا من النشاط المادي و من الأفكار التي لها كثافة الواقع ووزنه، والواجب نفسه يفرض علينا أن نقول: إن نمو حضارة ما-كما يؤكد البحث في طبيعة الأنتروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية– مشروط بوجود اللغة، فالبشر على خلاف الحيوانات ليسوا مضطرين إلى تعلم كل ما

1 د. زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ص 205.

2 محفوظ نحناح، الجزائر المنشودة، ص99.

3 د. أسعد علي، جذور العربية فروع الحياة، ص 108

4محمد علي ضناوي، مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية، ص 45

يعرفونه عن طريق الخبرة المباشرة أو ملاحظة و تقليد أفعال الآخرين، فهم يكتسبون معظم معارفهم من خلال وسيلة الكلمة المنطوقة و المكتوبة[1].

يقول (ول ديورانت): "هل نعرف اختراعا يساوي في قوته و مجده هذا الاختراع، اختراع الاسم الكلي. "[2]

هناك تأملات كثيرة مدارها أن اللغة هي طريقة الإنسان في "استيلائه" على هذا العالم، فهي تحمل صبغته، و تنقل إلى الأشياء عالمه، فاللغة بهذا المنطق هي وسيلة الإنسان "لتسخير" كل شيء لتناوله، و اللغة هي انعكاس العالم على وعي الإنسان.[3]

---

1 د. محمد الجوهري، الانتروبولوجيا: أسس نظرية و تطبيقات عملية،ص31

2 وول ديورانت قصة الحضارة نقلا عن محمد علي ضناوي، مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية، ص45.

3 د. مصطفى ناصف، اللغة و التفسير و التواصل، ص164

1- بوابة الحضارة:

اليوم...صارت اللغة بوابة للحضارة، وعند هذه البوابة تقع حروب و تقوم تحالفات.

كيف لا ؟ و اللغة من "ألزم لوازم الأمة الحية المستقلة التي تشعر بوجود و تحس كرامة.1 بريشة خلاقة ترسم اللغة صورة وجود الأمة بأفكارها و معانيها و حقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه.

و اللغة قومية الفكر: تتحد بها الأمة في صور التفكير، إذ لن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، و هو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، و رجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده2.

اللغة إذن تتنازع القوميات، ففي دراسة شملت مائة و خمسا و ثلاثين دولة تبين أن اثنتي عشر دولة فقط من بينها تتمتع بتجانس حضاري و لغوي، و أن خمسا و ستين دولة من بين هذه الدول تعيش حالات عنف تتراوح بين القمع و الاستعباد و الحصار...وصولا إلى الحرب.3

على سبيل المثال: حروب القبائل بين "الهوتو" و "التوتسي" شملت ثلاث دول هي: رواندا، بوروندي و زائير. أهل "الهوتو" يتكلمون الفرنسية، أما "التوتسي" فيتبنون الانجليزية، و ما يدور بين الاثنين هو ذبح على اللغة بعد أن صارت اللغة هوية.

هي حرب "فولتير" و "شكسبير"، لكن بمعجم إفريقي!

في أوروبا تشتعل حروب اللغة على جبهتين: جبهات الداخل و جبهات الخارج. (بلجيكا) هي نموذج لجبهات الداخل، فقد تحولت عام 1993 من مملكة (بلجيكا) إلى دولة اتحادية تضم (فلاندرا) في الشمال و (فالونيا) في الجنوب. أهل (فلاندرا) يتكلمون الفلمنكية

---

1 محمد عطية الإبراشي، الآداب السامية ، ص212.

2 ينظر : مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ص33 و ما بعدها

3 ينظر: مجلة العربي، الحروب اللغوية ، ص 124.

الألمانية، و أهل(فالونيا) يتكلمون الفرنسية، و بين الاثنين تلقي الحرب الباردة أوتادها، و قد تنتهي حكاية الاتحاد بإعلان الاستقلال.1

أما (المملكة المتحدة) فتجمع النموذجين معا، على جبهات الداخل تخوض حروب الاستقلال ضد (إيرلندا الشمالية) و ضد (سكوتلاندا) وأخيرا ضد (ويلز)، و على جبهات الخارج تخوضها ضد أوروبا الموحدة لتحافظ على "الاستثنائية الانجليزية" وسط اللغات الأوروبية.

أما في أمريكا الشمالية فإن "الإيبونيكس" أو الإنجليزية السوداء هي آخر صيحات الحرب..2

هذه نماذج من حروب اللغة فماذا عن تحالفاتها ؟

قررت (ألمانيا) و (سويسرا) و (النمسا) تشكيل لجنة لتحديث اللغة الألمانية، إذ هي القاسم المشترك بين هذه الدول.

اللجنة التي صرفت عشرات الملايين من الماركات، قالت إنها قامت بإصلاحات كثيرة لتبسيط قواعد اللغة أمام الجيل الجديد... و قامت قيامة (ألمانيا) بمؤلفيها ومفكريها، يشنون الحرب على الإصلاحات المزعومة، و حجتهم هي أن من يتعلمها سوف يحتاج إلى ترجمة (نيتشه) و (هيجل) و (غوته) و (توماس مان) عن الألمانية.3

مع ذلك فالتحالف مستمر.

أما في أمريكا اللاتينية، فإن الاسم الحركي للتحالف اللغوي الجديد: "ميركوس"، و يضم هذا التحالف أربع دول هي: (البرازيل)، (الأرجنتين)، (باراغواي) و(الأروغواي)، و هذه السوق اللغوية المشتركة هي اقتصادية في الأساس، و لكنها قررت أن تشارك في لغتيها

1 يراجع بهذا الصدد:- محمد محفوظ، الإسلام، الغرب..وحوار المستقبل، ص130 و ما بعدها
- العربي، الحروب اللغوية، ص124

2 ينظر: موريس أبو ناضر، أفكار جديدة لعالم جديد، ص 107

3 د. عبد الكريم بكري، فصول في اللغة و الأدب، ص54.

الرئيستين: الإسبانية و البرتغالية، و أن تعمل في المستقبل على لغة واحدة هي: إما الإسبالية أو البرتغانية.1

هكذا تقع حروب اللغة، و هكذا تختار اللغة حلفاءها أو أعداءها.

2- ماذا عن العربي و لغته؟

الوضع اللغوي عند الأمة العربية وضع خاص و فريد. يتمثل في ذلك البناء الفوقي الأمثل الذي ثبت أركان اللغة العربية و الذي فتح لها سجلا جديدا، إنه القرآن الكريم، الكتاب المقدس الذي حفظ اللغة العربية من تقلبات الأيام و أحداث الزمان، و عمل على استمرارها مؤمنا لها اجتياز أقسى المحن و أعسر الأزمات التي عرفها التاريخ، فكان بمثابة المدونة التي تشكل عمود اللغة العربية و أساسها و قواعدها، إنه الناموس الذي تنضوي تحت لواء شرعيته النصوص و الآثار الأدبية و الإنتاج الرفيع و التراث برمته.2

و قد امتد الإسلام إلى أمم و شعوب و قوميات أخرى، و حمل إليها روائع اللغة العربية ولقحها بها، و جعل لهذه اللغة حتى عند غير أهلها مكانة خاصة، و أحيانا قداسة خاصة، لأنها لغة الكتاب المقدس. و من ثمة كان العرب أشد شعوب الأرض إحساسا بلغتهم، التي سكبت عقولهم في قالب واحد، و ركزت طبائعهم، و جعلت منهم -أخلاقيا وروحيا- أمة واحدة.3

إنها ترتبط بين شعوب تعد بعشرات الملايين، و تعيش على مساحة شاسعة الأطراف تمتد من المحيط إلى الخليج، فهي من هذه الناحية عامل توحيد و تلاحم، وأداة اتصال وجسر تواصل....و على ضفافها يلتقي أبناء الأمة داخل فضاء الإنتماء التاريخي والمستقبلي.

---

1 ينظر: ريمون طحان، اللغة العربية و تحديات العصر، ص19.

2 ينظر: موريس أبو ناضر، أفكار جديدة لعالم جديد،ص 107

3 د. عبد الكريم بكار، فصول في اللغة و الأدب ، ص54

و كيان العربية يتشجع على عقد الخناصر، و على الحفاظ على جوهر الإنسان العربي و على تأمين استمرار الإنتاج و نقله من السلف إلى الخلف..مما يمنع تفكك المنطقة الجغرافية العربية، و تقطع أوصال الأمة و تمزق وشائج القرابة التي تجمع العرب بين آصرة اللسان و التراث الديني و العلمي و الأدبي1

كتب (محمد عابد الجابري): "اللغة العربية، ربما كانت اللغة الوحيدة في العالم التي ظلت هي هي في كلماتها و نحوها و تراكيبها منذ أربعة عشر قرنا على الأقل، و قد أدركنا ما يمكن أن يكون من تأثير لهذه اللغة على العقل العربي و نظرته إلى الأشياء ".2

و لعل هذا يحيلنا إلى ما قرره (ابن تيمية) حين قال: "و اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل و الخلق و الدين تأثيرا قويا بينا، و يؤثر أيضا في مشابهته صور هذه الأمة من الصحابة و التابعين ... و ذلك لأن دور اللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون..."3

- العربية و رهانات العصر:

إذا كانت العربية قد مدت جسور التواصل مع أهلها قبل الإسلام و بعده، و إلى يوم الناس هذا، و إذا كان انتشار اللغة من أقوى أسلحة انتشار النفوذ المعنوي، والمشاركة الوجدانية و التأثر العقلي، أو كما يسميه (مبارك حنون): السلطة الرمزية، ويرى تنافس الساعة قائما من أجل هذه السلطة، التي إن لحقتها الهزيمة تلاشت الهوية، و باتت اللغة مهددة بالانقراض4، فإن الأمة العربية لا ككيان سياسي و حسب بل ككيان حضاري، لديها فرصة نادرة لأن تكون لغتها سلاحا من أمضى الأسلحة في كل معاركها، و وسيلة خلاقة للمساهمة الايجابية و الفعالة في صناعة تاريخ الإنسانية الجديد.

---

1 ينظر: ريمون طحان، اللغة العربية و تحديات العصر، ص46

2 محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص10

3 نقلا عن: محمد علي ضناوي، مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية، ص48

4 ينظر:مجلة المنطلق، الوضع اللغوي بالمغرب في أفق العولمة،ص117

- **سؤال المستقبل.. جواب الحاضر!!**

لكن...حديث اليوم غيره بالأمس...فانطلاقا مما جاء في أطلس للغات المهددة في العالم بالاندثار، و الذي أصدرته منظمة الأمم المتحدة للتربية و الثقافة و العلوم (اليونسكو)، سارعت هذه المنظمة في المطالبة بالتنوع اللغوي و حماية التراث اللغوي الإنساني. لما تمثله اللغات من حضارات الأمم و تراثها الثقافي و الاجتماعي، و لكونها أداة التواصل بين مختلف الأجيال.

لذلك أعدت المنظمة قواميس و تسجيلات اللغات التي قد أوشكت على الانقراض، و نادى مديرها العام (كويشيرو متسورا) بالعناية بكل اللغات، فقال في رسالة وجهها بمناسبة اليوم العالمي للغات الأم: "علينا أن ننظر إلى كل اللغات نظرة مساواة لأن كل واحدة منها هي جواب فريد عن الشرط الإنساني، كما هي تراث حي يستحق العناية".1

في إفريقيا مثلا، لا يزال عدد من بلدان القارة السمراء يكرس هيمنة بعض اللغات السائدة، مثل "السواحلية" في شرق إفريقيا، و اللغات الموروثة عن عهود الاستعمار. وبين الأطلس الصادر عن منظمة 'اليونسكو' بشأن التنوع اللغوي أنه من أصل 1400 لغة محلية إفريقية، هنالك ما بين 500 و 600 لغة في حالة تقهقر و حوالي 250 لغة مهددة بالاندثار. و في أمريكا الشمالية و قبل الاستعمار الأوروبي للقارة الأمريكية، كان للهنود الحمر لغاتهم الخاصة بهم، يبلغ عددها حوالي 150 لغة، مازالت تواجه خطر الانقراض، بل إن معظمها قد انقرض فعلا.

و في أمريكا الوسطى و الجنوبية تواجه اللغات الهندية الأصلية الهيمنة المطلقة للبرتغالية و الإسبانية. لذلك انقرضت في المكسيك 24 لغة محلية، بينما في أمريكا الجنوبية، لا تزال 375 لغة محلية تواجه خطر الاندثار.2

---

1 لمزيد من التوسع، راجع: اللغة العربية و عصر المعلومات، مجلة النبأ www.annabaa.org

2 المرجع نفسه

و الظاهر من مراحل التاريخ البشري أن اللغات لا تعيش إلى الأبد. فاللغة تنشأ وتنمو و تزدهر لفترة محدودة، ثم تختفي مثلما تختفي الثدييات، كالديناصورات، والطيور و النباتات. و قد ظهرت و ازدهرت حسب علماء التنوع اللغوي لغات كثيرة ثم آلت إلى الاندثار دون أن تترك في غالب الأحيان أي أثر لحضارات أصحابها و عاداتهم وتقاليدهم. و كل لغة منقرضة تكون قد استمرت لفترة قصيرة نسبيا، إلا القليل من اللغات التي يزيد عمرها عن ألفي سنة مثل: اللغات المصرية القديمة و اليونانية و الفارسية و غيرها.

الجديد في الأمر هو تنامي السرعة المعجلة بانقراض اللغات. و مرد هذه الظاهرة إلى عدة أسباب أهمها: الغزوات الاستعمارية منذ قرون مضت، و الثورة الرقمية التي نعيش بداياتها.

3– موت اللغة:

هل تموت اللغة ؟

نعم . فعندما تموت السيدة (ماري سميث جون)،تكون آخر من يتكلم لغة إياك Eyak لغة قبيلتها بآلاسكا. وتعلق قائلة : إنه مزعج أن تكون وحيدا تتكلم هذه اللغة . لكن في الحقيقة يوجد مثيلها ممن يتكلمون لغة مندثرة من بين 6000 لغة تتكلمها شعوب العالم حاليا . وكما تقول اليونسكو: إن انقراض بعض اللغات يعتبر كارثة حضارية وثقافية. وكانت قد أعلنت أن هناك 3000 لغة من بين لغات العالم مهددة بالانقراض اللغوي حتى عام 2050 و2400 على حافة هاوية الانقراض.

لقد قرأنا عن التنوع الحيوي والآن تطالب منظمة اليونسكو بالتنوع اللغوي حماية للتراث اللغوي الإنساني. وهذا ما جعلها تصدر قواميس وتسجيلات اللغات التي قد أوشكت على الاندثار لتكون فيما بعد مخطوطاتها كحجر رشيد لفك طلاسم هذه اللغات الميتة للأجيال القادمة . فهناك 3000 لغة من بين 6000 لغة عالمية معرضة للانقراض بين شعوب الأرض

تمثل حضارات أمم وتراثها الثقافي والاجتماعي والحياتي، وهذا ما جعل اليونسكو تدق أجراس الخطر وتشن أكبر حملة دولية للحفاظ على هذا التراث الإنساني من الضياع أو الاختفاء ، فخلال القرون الثلاثة الماضية توارت بل ماتت عدة لغات ولاسيما في أستراليا وأمريكا وعدة بلدان من العالم . واعتبرت المنظمة أن 30% من أطفال أي لغة لا يتعلمونها معرضة للانقراض اللغوي الداهم . لأن من خلال اللغات التي نكتسبها نتعرف على المعارف الانسانية ونعبر عن عواطفنا . وأي لغة هي أداة التواصل المعرفي في المدرسة، و بين القديم والحديث، بل وبين الآباء والأبناء، أو حتى الأصدقاء مما يؤصل التواصل بين الأجيال . وهذا ما بينته اليونسكو من خلال إعلانها لليوم العالمي للغة الأم لإحياء وتأصيل وتوثيق هذا التراث الإنساني الحي الذي أوشك على الضياع والاندثار. فحوالي 50 لهجة أوربية تواجه هذا الخطر من بينها لهجة tongues Saami Lappish باسكندينافيا وشمال روسيا و14 لهجة بفرنسا وفي سيبريا بروسيا الاتحادية تختفي 40% من لغاتها المحلية . وفي أوربا كما في النرويج وسويسرا توجد حركة تشجيعية للازدواجية اللغوية لأي مدى . وفي آسيا نجد أن الوضع غير مؤكد لأهل شمال شرقها وغربها. وفي الصين بغرب إقليم زنجيا نج وينان هناك ضغوط للتخلي عن لغاتهم المحلية . عكس شبه القارة الهندية حيث يوجد تنوع لغوي بسبب سياسة الحكومة . وثمة لغات عرقية قد اختفت في أفغانستان والهيملايا . لكن في جزر أندامان بخليج البنغال توجد مجموعة عرقية تتكلم الشمبينية.

وفي المحيط الباسفيكي حيث اليابان و تيوان و الفلبين والجزر المنعزلة بماليزيا وإندونيسيا و بوباغينيا الجديدة وجزر سولومون و فيجي و جزر فانتو و كلود ونيا الجديدة و ميكرونيزيا و بولينيزيا و أستراليا توجد 2000 لغة حية تمثل ثلث لغات العالم وفي غينيا الجديدة وحدها 820 لغة تمثل أكبر كثافة لغوية بها . لكن في تيوان 14 لغة اختفت بضغط الحكومة. وفي كاليدونيا الجديدة تحت التأثير الفرنسي على سكانها (60 ألف نسمة) نجد ثلثيهم قد نسوا لغتهم الأم. وفي استراليا كان ممنوعا على سكانها الأصليين (الأبارجين) التكلم بلغاتهم الأصلية حتى عام 1970. لكن حاليا 25% منهم مازالوا يتكلمونها.

– مستقبل لغوي مقلق :

يتوقع علماء التنوع اللغوي اختفاء نصف موروثنا اللغوي من سجل الحضارات بحلول منتصف هذا القرن. ما يقابله في سجل التنوع الحيوي للأحياء اختفاء هذه اللغات يعادل ضعف معدل اختفاء الثدييات وأربعة أضعاف اختفاء الطيور وهذا ما جعل علماء اللغات يتوقعون اختفاء 90% من اللغات بحلول عام 2100 . وهذا ما دعاهم بالمطالبة لوضع الأقليات العرقية في محميات جغرافية طبيعية للحفاظ على موروثهم الثقافي واللغوي والاجتماعي . وهذا يصعب تحقيقه واقعيا أمام المد العمراني والتوسع الحضاري والتمدن الذي يشهده العالم من خلال ثورة التكنولوجيا والاتصالات التي تغلغلت في المجتمعات البدائية البكر بفيوضات لا يمكن درأها أو مقاومة مغرياتها.

ويطلق على اللغة التي تكتسب دارسين أو متحدثين لها جدد اللغة الحية أو المزدهرة. لأن اللغة التي لا تتواصل مع الأجيال اللاحقة يطلق عليها لغة ميتة.... بعض اللغات تتوارى كالأنواع الحية وهذا أمر طبيعي ومتوقع عبر التاريخ الإنساني . فهناك لغات تظهر وتنمو وتزدهر وأحيانا تتداعي وتموت أو تضمحل. أو تحل محلها لغة منحوتة منها. كما ظهرت اللغة الإيطالية من عباءة اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في العصور الوسطي . وهذه سنة الحياة البشرية ، وانقراض اللغات حاليا يتسارع كما تنقرض الأنواع نتيجة الانفجار السكاني أو عصر الصناعة أو العولمة حيث الاقتصاد العالمي يجبر المجتمعات غير الصناعية على الاختيار مابين لغتها التقليدية أو المشاركة مع العالم الكبير ، ففي شرق إفريقيا الشعوب في حاجة ماسة لتتكلم اللغة السواحلية لتنمو وتزدهر، وفي وسط أوربا يحتاج سكانها للتكلم بالروسية. وبنظرة عامة العالم كله في حاجة للتحدث بالإنجليزية ، وأحيانا اللغات المحلية في حاجة للتعايش مع اللغات الحية، وفي الغالب تحل محلها عندما يموت الكبار وتندثر لغاتهم القومية معهم، لأن الصغار يتبنون الألسنة السائدة ، فإيقاع الحياة الجديد والإعلام قد أسفرا عن ظاهرة غريبة في المجتمعات التقليدية، مما يجعل الأطفال لديهم مصادر معرفية ومعلوماتية تغويهم و ليس لها صلة بالمصادر المعلوماتية لدى الكبار لديهم في مجتمعاتهم الأصلية، فالإتحاد الأوربي يتوقع انتشار اللغة الإنجليزية بين دوله

ولاسيما على حساب اللغات المحلية بها. والتي ليس لها قدرة على مقاومة انتشار اللغة الإنجليزية بين دول سوقه المشتركة.

– الفجوة اللغوية:

لم تفقد أوروبا، خلال القرون الثلاثة الأخيرة أكثر من عشر لغات في حين أدى استعمار بلدان هذه القارة لعدة مناطق في العالم إلى فرض لغاتها على الشعوب المستعمرة و انقراض ما يزيد على 15% من اللغات المحلية. ففي (البرازيل)، على سبيل المثال، انقرض أكثر من ثلاثة أرباع اللغات المحلية، (حوالي 540 لغة) منذ بداية الاستعمار البرتغالي في عام 1935م. و في (استراليا)، فلم يبق الاستعمار الأوروبي, في نهاية القرن الثامن عشر إلا 20 من أصل 250 لغة محلية.

أما بخصوص الثورة الرقمية، و دعامتها الأساسية شبكة الانترنت, فقد ورد في أحد تقارير منظمة اليونسكو، الصادر مؤخرا أن من ضمن الستة آلاف لغة، هناك 500 لغة فقط ممثلة على الشبكة، معظمها ذو وجود ضعيف للغاية. و حسب إحصائيات سنة 2004 لمكاتب دراسات موثوقة، تسع لغات منها فقط تسيطر على بقية اللغات الأخرى بصفة واضحة لا لبس فيها. فلو أخذنا عدد الموزعات المتوفرة على شبكة الانترنت والتي تعطينا فكرة عن محتوى تلك الشبكة ومصدره، يمكن أن نستنتج الجدول الموالي لتفصيل نصيب تلك اللغات:

اللغة	النسبة
الانجليزية	%68.4
اليابانية	%5.9
الجرمانية	%5.8
الصينية	%3.9
الفرنسية	%3
الاسبانية	%2.4
الروسية	%1.9

البرتغالية	%1.4
الايطالية	%1.4
الكورية الجنوبية	%1.3
بقية اللغات (و عددها 491 لغة)	%4.6

هذا مع العلم أن نسبة رصيد الدول العربية مجمعة على الشبكة لم يتجاوز صفر فاصل بعض الكسور (0.28%) في حين أن العرب يمثلون ما يناهز 4.5% من مجموع سكان العالم.

تبرز هذه المؤشرات أن هناك فجوة لغوية فاصلة بين الانجليزية و الثماني لغات التي تليها من ناحية و هوة لغوية عميقة قائمة بين الإنجليزية و غيرها من اللغات المتبقية، من ناحية أخرى.

و هذا الوضع ينذر، حسبما تؤكده كذلك تقارير منظمة اليونسكو، بتسارع معدل انقراض اللغات التي لا تتطور و لا تتفاعل مع التكنولوجيات الحديثة للمعلومات والاتصال، و قد وصل هذا المعدل حاليا إلى انقراض لغة إنسانية كل أسبوعين. ويتوقع علماء التنوع اللغوي و انقراض نصف الموروث اللغوي لعامة البشرية، أي 3000 لغة ن جملة 6000 لغة المستخدمة حاليا بحلول منتصف هذا القرن. كما يتوقعون اختفاء 90% من اللغات بحلول 2100.

-صراع اللغات في عصر المعلومات:

يبدو من خلال ما سبق أن هنالك علاقة بين تسارع التكنولوجيات و تأثيرها القوي في تزايد انقراض اللغات، و هو ما قد يبرر تشاؤم البعض بخصوص مستقبل التنوع اللغوي و الحفاظ على لغات الشعوب و لكن في مقابل ذلك، للبعض الآخر الحق في التفاؤل حين يرى أن طغيان اللغة الانجليزية في تقلص مستمر، فبينما مثلت الانجليزية في بداية ظهور الانترنت ما يزيد على 95% من حجم البيانات المتبادلة،تراجعت هذه النسبة إلى حوالي 80% في سنة 2001 و إلى 68.4% في سنة 2004 .

و هناك من يتوقع أن تفقد اللغة الانجليزية وضعها الرقمي المهيمن بحلول عام 2015. ويعود هذا التراجع إلى نمو و ازدهار لغات أخرى مثل اليابانية و الصينية والجرمانية، فعلى أي شعب إذا أراد الحفاظ على لغته من الانقراض، أن يطورها وينميها و يثري بواسطتها الرصيد

العالمي على شبكة الشبكات. فالفترة الراهنة تعد فترة صراع بين اللغات، هدفها في عصر المعلومات، احتلال مكانة مرموقة في سلم الحي والمزدهر من لغات العالم.

لدينا الحق في أن نتساءل: بين تلك الفرصة النادرة التي تشرع اللغة سلاحا،و بين هذه الرهانات المعاصرة، أين موقع اللغة العربية؟ و هل ستسمح لها المرحلة التاريخية الراهنة بأن تكشف عن سر جمالها و عبقريتها لعالم الألفية الثالثة؟ في ظل هذا الفردوس الجديد الذي تحركه آلة صارمة من القوى الاقتصادية و التجارة الدولية و التنافس الصناعي: هل ستجد اللغة العربية مكانا لها؟

الهموم كبيرة ، قد تأخذنا لهفتها بعيدا ، و فك خيوطها لا يعدو أن يكون مجرد محاولة، ربما تؤتي أكلها، ربما تحيد عن الهدف.

بين هذا و ذاك يبقى السؤال حقا مشروعا.

و الأوراق اللاحقة تتجشم عبء الإجابة

الفصل الأول

حفريات العولمة

قراءة في جذور الظاهرة

لكل عصر مفاهيمه و مصطلحاته ومفرداته، ولكل مرحلةٍ من مراحل التاريخ البشري اهتماماتها وقضاياها وانشغالاتها. وفي مسيرة الفكر الإنساني تتجدّد ألفاظ الحضارة وتتطور معانيها وتتشعب مضامينُها، وتبرز أفكار جديدة ونظريات مبتكرة تنحو مناحي متعددة وتُطرح في صياغاتٍ مستحدثة، أو تُصَبُّ في قوالب ونظم تلائم العصر، وتعبّر عن طبيعته وتستهدف قضاياه.

ومن المفاهيم الجديدة التي تُطرح في هذا العصر- وتحديداً منذ العقد الأخير من القرن الماضي- مفهومُ العولمة الذي اقترن ظهورُه بانتهاء الحرب الباردة وابتداء ما يُصطلح عليه بـ (النظام العالمي الجديد) الذي هو في حقيقة أمره وطبيعة أهدافه، نظامٌ صاغته قُوى الهيمنة والسيطرة لإحداث تنميط سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي وإعلامي واحد وفرضه على المجتمعات الإنسانية كافة، وإلزام الحكومات بالتقيّد به وتطبيقه.

ولقد خَالَطَ مفهومَ العولمة هذا كثيرٌ من الأوهام حتى صار من المفاهيم المعقدة، المبهمة أحياناً، المثيرة للجدل دائماً، المرتبطة في الأذهان بالسياسة التسلّطية التي تمارسها الدولةُ التي انفردت بزعامة العالم في هذه المرحلة، بعد أن خَلاَ لها المجالُ بانهيار القطب الموازي لها، وسقوط منظومته المذهبية والسياسية والفكرية والثقافية.

ولذلك فإن للعولمة وجوهاً متعددة؛ فهي عولمة سياسية، وعولمة اقتصادية، وعولمة ثقافية، وعولمة إعلامية، وعولمة علمية وتكنولوجية. والخطير في الأمر كلِّه، أن لا وجه من هذه الوجوه يستقل بنفسه؛ فعلى سبيل المثال، لا عولمة ثقافية دون عولمة سياسية واقتصادية تمهد لها السبيل وتفرضها فرضاً بالترهيب والإجبار تارة، وبالترغيب والتمويه، تارة أخرى.

ومن هنا، كان لابد أن نفهم العولمة باعتبارها منظومةً من المبادئ السياسية والاقتصادية، ومن المفاهيم الاجتماعية والثقافية، ومن الأنظمة الإعلامية والمعلوماتية، ومن أنماط السلوك ومناهج الحياة، يُراد بها إكراه العالم كلِّه على الاندماج فيها، وتبنّيها، والعمل بها، والعيش في إطارها.

أولا: متاهات كلمة

على تعدّد الشروح وتنوّع التفسيرات التي حاول بها مفكرو العصر - من المشتغلين بالفكر السياسي في اتجاهاته الثقافية والاجتماعية - فهم العولمة وتفسيرها، فإنَّ أجمع شرح للعولمة وأعمق تفسير لدلالاتها ومضامينها، لا يخرجان عن اعتبار العولمة . في دلالتها اللغوية أولاً . هي جعل الشيء عالمياً، ما يعني جعل العالم كلِّه وكأنه في منظومة واحدة متكاملة. فكان مصطلحها (GLOBALIZATION) في الإنجليزية والألمانية، وفي الفرنسية (MONDIALISATION)، ووضعت كلمة العولمة في اللغة العربية مقابلاً حديثاً للدلالة على هذا المفهوم الجديد.

و مهما تعدّدت السياقات التي ترد فيها العولمة، فإن المفهوم الذي يعبّر عنه الجميع في اللغات الحيّة كافة، هو الإتجاه نحو السيطرة على العالم وجعله في نسق واحد. ومن هنا جاء قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة بإجازة استعمال العولمة بمعنى جعل الشيء عالمياً 1

وهو نفسه المعنى الوارد في المعجم العالمي الشهير (ويبسترز WEBSTERص S)، حيث العولمة (GLOBALIZATION) هي إكسابُ الشيء طابعَ العالمية، وبخاصة جعل نطاق الشيء، أو تطبيقه، عالمياً2. ولكن هذا المعنى يبدو شديد البراءة بالغ الحياد، لا ينسجم في عمقه مع دلالة اللفظ ومفهوم المصطلح، كما يُشاع ويتردد في العالم اليوم. ولذلك فإن المفهومَ السياسيَّ والثقافيَّ والإقتصاديَّ للعولمة، لا يتحدّد بالقدر اللازم، إلا إذا نظرنا إليه من خلال رؤية عامة تدخل في نطاقها جميعُ المتغيّرات السياسية والثقافية والإقتصادية التي يعيشها العالم منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين3.

1 المستقبل العربي، العولمة - السوق العربية المشتركة- ،ص142-143
2 المرجع نفسه، ص142-143
3 مجلة البيان، نهاية الجغرافية، ص102

هل العولمة خطر؟. وهل هي شرٌّ كلُّها؟، وهل يوجد مجالٌ للاختيار أمام تيارها الجارف المدعم بالنفوذ السياسي الضاغط والهيمنة الإقتصادية القاهرة؟. والسؤال الكبير: هل تؤمن العولمة بالآخر المختلف، و بتعدد الروافد..؟

1- بين التعدد و الاختلاف:

هنالك فرق كبير بين العالمية والعولمة. فالمصطلح الأول يعني أن أبناء هذا العالم بمختلف قبائله وشعوبه ولغاته وملله ونحله، يعيشون على هذه الأرض، فلا بد أن يتفاهموا فيما بينهم، تمهيداً للتعاون الدائم على خير الجميع، ولا مانع من أن يأخذ بعضهم من بعض. ولا يجوز أن يفرض بعضهم على بعض لغته أو دينه أو مبادئه أو موازينه. فالاختلاف في هذا الإطار طبيعي جداً، والتعاون ضروري أبداً، لمنع الصدام والحروب والعدوان.

وهذه العملية العالمية قد تُسمى بالتثاقف الحضاري بين الشعوب والأمم، وهي واقع البشرية منذ أقدم العصور إلى اليوم، فاللغات تلاحقت والمجتمعات تعاونت والحضارات عبرت من مكان إلى مكان.

والحروب والمظالم التي قامت ويمكن أن تقوم بين أبناء البشرية، تستنكرها العقول السليمة، ومبادئ الأديان الحقة، والمصالح المشتركة. لأن سعادة البشرية مطلوبة لذاتها، والتعاون فيما بينها على الخير من أعظم الفضائل التي تقرها وتشجع عليها القيم الفاضلة، التي أجمع عليها البشر في هذه الحياة.

وأوضح مثال على ذلك الإسلام، فعندما جاء خاتمًا للأديان وهداية للعالمين، دعا الناس إلى عقيدته وشريعته وقيمه الأخلاقية، من خلال الدعوة الراشدة، والجدال الحسن، دون إكراه لأحد، ومعترفًا بواقع الخلاف الموجود في الأرض، منطلقًا من القرآن الذي يقول: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إلى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**

1 المائدة: 48

قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾1. وقوله: ﴿ **وَقُلْ لِلَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ 2**، وقوله: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يخرجوكم مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِين**﴾.

وقد بُنيت هذه التوجيهات الربانية على قوله تعالى: ﴿ **الحمد لله رب العالمين**﴾ ولم يقل ربّ المسلمين فحسب. لماذا ؟ لأن هذه الدار دار عمل للجميع وليست دار جزاء، وإنما الجزاء يكون في الآخرة. قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾3**.

وهذا تاريخ البشرية عامة، وتاريخ الإسلام خاصة، لم يرد فيه دليل على أن المسلمين رسموا للبشرية طريقًا واحدًا ووجهة واحدة وحكمًا واحدًا ونظامًا واحدًا وعالما واحدًا بقيادة واحدة بالإجبار والإكراه.

بل اعترفوا بواقع الأديان واللغات والقوميات، عاملوها معاملة كريمة، بلا خداع ولا سفه ولا طعن من الخلف؛ ولذلك عاش في المجتمع الإسلامي اليهودي والنصراني والصابئي والمجوسي وسائر أهل الشرك بأمان واطمئنان4.

وأما الأمم التي كانت تعيش خارج العالم الإسلامي، فقد عقدت الدولة الإسلامية معها مواثيق ومعاهدات في قضايا الحياة المتنوعة. ومن الممكن مراجعة ذلك في الكتب التي تتحدث عن العلاقات الدولية في التشريع الإسلامي5.

---

1 البقرة: 256
2 آل عمران: 20
3 آل عمران: 85
4 يراجع في سبيل إثبات هذه الحقيقة: آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، و أرنولد توينبي، الدعوة إلى الإسلام، و محسن عبد الحميد، مذهبية الحضارة الإسلامية.
5 راجع على سبيل المثال : عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دا ر الإسلام ، و علي علي منصور، الإسلام والعلاقات الدولية ، و د. محمد عبد الله دراز، العلاقات الدولية في الإسلام

والتوجيه الأساس في بناء العلاقات الدولية في الإسلام قوله تعالى ﴿ **يَاأيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾1**.

ذلك هو المعنى المختزل و غير المشوه للعالمية.. إنها اعتراف بالتعدد و قبول لقوس قزح الانسان.. و لا تقوم على الفرض و لا على الغصب.

إنها باختصار إيمان بالآخر.. إذ لا إكراه في الدين و لا في الرأي ولا في الهوية و لا في الانتماء....

2- في الخطاب الغربي

جعل العالم عالما واحدًا، موجهًا توجيهًا واحدًا في إطار حضارة واحدة،يختزل في كلمة واحدة اسمها العولمة، و قد تسمى الكونية أو الكوكبة.

وإذا كان السؤال قائما حول مفهوم العولمة، و حول مختلف ممارساتها، فإن ثمة مجموعة من التعاريف تعيننا في فهم الظاهرة.

أ- انكماش العالم:

و لعل أهم و أقدم تعريف للعولمة هو تعريف (رونالد روبارتسون)، الذي يؤكد على أن العولمة هي اتجاه تاريخي نحو انكماش العالم و زيادة وعي الأفراد و المجتمعات بهذا الانكماش2.

إن أهم ما يميز تعريف (روبرتسون) تركيزه الشديد على فكرة انكماش العالم، والتي تتضمن أمورا كثيرة، منها تقارب المسافات و الثقافات، و ترابط الدول والمجتمعات وسرعة التحولات و المستجدات. و إدراك العالم لمثل هذه الحركة يعني أن العولمة قد أصبحت حقيقة حياتية معاشة في الواقع و في الوعي.

1 الحجرات: 13
2 Globalisation ,P8 , نقلا عن عالم الفكر, ص 52

ب– العولمة إفراز حداثي:

وإذا كان هناك إجماع على فكرة الانكماش و عناصرها المختلفة، و التي هي أهم ما يميز عصر العولمة، فإن ثمة مجموعة من التعريفات تركز على بعد واحد من الأبعاد المختلفة لحركة الانكماش التي يعرفها العالم.

منها تعريف (أنتووني جيدنز) الذي يعد العولمة: "مرحلة جديدة من مراحل بروز وتطور الحداثة. تكثف فيها العلائق الاجتماعية على الصعيد العالمي، حيث يحدث التلاحم غير القابل للفصل بين الداخل و الخارج، يتم فيها ربط المحلي و العالمي بروابط اقتصادية و ثقافية وسياسية و إنسانية[1].

إذا كانت العولمة امتدادا للحداثة و نتيجة لها، فإنها تضيف - في نظر (جيدنز)- بعدا جديدا إلى الأبعاد المحلية. حيث يصبح العامل الخارجي بمستوى حضور العامل الداخلي في تأثيره على سلوكات الأفراد و قناعاتهم و أفكارهم. و هذا لا يعني أن العولمة تلغي المحلي إلغاء كاملا، أو أن البعد العالمي قد ألغى البعد المحلي. كل ما هنالك أن العالمي يضاف إلى المحلي و يتعايش معه و يغنيه و يبرزه. بل و أحيانا يقويه، بحيث يصبح المحلي عالميا و العالمي محليا[2].

ج– دمج العالم في مجتمع واحد:

أما (مالكوم واترز) فيعرف العولمة بقوله: "هي كل المستجدات و التطورات التي تسعى بقصد أو من دون قصد إلى دمج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد "[3].

العولمة هنا تشير إلى وقائع و مستجدات محسوسة، و مستقلة عن وعي الأفراد، محصلتها النهائية صنع المجتمع العالمي الواحد الذي يكون هدفا لأي نشاط اقتصادي أو سياسي أو ثقافي.

تلك هي بعض المفاهيم التي قدمها الغرب للعولمة، و هو الطرف الفاعل والمؤثر في حركتها، يعيشها و يمارسها واقعا نظَم على أساسه إمكاناته و قدراته و آلياته و نظمه،

1 المرجع السابق،ص 52
2 مجلة نزوى، العولمة و الهوية الثقافية، ص 61
3 زكي الميلاد، المسألة الحضارية، ص 32، ص 33

وبالتالي فهو يدرك ماهية العولمة و فلسفتها و مفاعيلها و مستقبلياتها، وتأثيرها على خياراته واستراتيجياته.

(جيمس روزانو)، أحد علماء السياسة الأمريكيين يقول عن العولمة: "إنها العلاقة بين مستويات متعددة لتحليل الاقتصاد والسياسة والثقافة و الأيديولوجية، وتشمل: إعادة الإنتاج، وتداخل الصناعات عبر الحدود، وانتشار أسواق التمويل، وتماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول نتيجة الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة1".

أما الفيلسوف الفرنسي (روجيه جارودي) فيقول عن العولمة: "نظام يُمكّن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر وحرية السوق". 2

ويثبت (هانس بيترمارتن وهارالد شومان)، صاحبا كتاب فخ العولمة أن العولمة هي عملية الوصول بالبشرية إلى نمط واحد في التغيير والأكل والملبس والعادات والتقاليد3.

ويقول أحد الكتاب الفرنسيين عن النظام الرأسمالي الأمريكي: "فكلما ازداد هذا النظام الرأسمالي الجشع إمعانًا وانتشارًا بالعولمة، ازدادت الانتفاضات والحروب العرقية والقبلية والعنصرية والدينية للتفتيش عن الهوية القومية في المستقبل. وكلما تَفَشَّت المعلوماتية والأجهزة التلفزيونية والسلكية واللاسلكية، تكبلت الأيدي بقيود العبودية، وازدادت مظاهر الوحدة والانعزال والخوف والهلع دون عائلة ولا قبيلة ولا وطن. وكلما ازداد معدل الحياة سوف تزداد وسائل القتل، وكلما ازدادت وسائل الرفاهية سوف تزداد أكثر فأكثر جرائم البربرية والعبودية"4

3- في الخطاب العربي:

1 نعيمة شومان، العولمة بين النظم التكنولوجية الحديثة ، ص40
2 روجيه جارودي، العولمة المزعومة - الواقع و الجذور-، ص17
3 هار الدشومان وهانس بيار مارتين، فخ العولمة ، ص 55- 58
4 حسن حنفي و صادق جلال العظم، ما العولمة؟، ص 20

وإذا رجعنا إلى دراسات المفكرين العرب نجد أنهم جميعا يعرفون العولمة في إطار المقولات الآتية التي تلتقي على بيان حقيقة واحدة.

يقول (د. حسن حنفي): "العولمة لصالح الآخر على حساب الأنا (أي الذات) وقوة الآخر في مقابل ضعف الأنا وتوحيد الآخر في مقابل تفتيت الأنا"1. ويقول: "هي حضارة المركز (أي حضارة الدول الغربية التي لقوتها تقع في مركز العالم وبقية الدول هوامش تابعة) وتبعية الآخر (أي الدول غير الغربية غير الصناعية التي يصطلح على تسميتها دول الجنوب)، وهي مركزية دفينة في الوعي الأوربي تقوم على عنصرية عرقية، وعلى الرغبة في الهيمنة والسيطرة"2.

ويقول(د.سيار الجميل): "إنها عملية اختراق كبرى للإنسان وتفكيره، وللذهنيات وتراكيبها، وللمجتمعات وأنساقها، وللدول وكياناتها، وللجغرافيا ومجالاتها، وللاقتصاديات وحركاتها، وللثقافات وهوياتها، وللإعلاميات وتداعياتها"3.

ويشبه (د.نجيب غزاوي) إمبراطورية العولمة بالإمبراطوريات التي سادت في العصر الأخير فيقول: "الإمبراطورية التي عمدت على فرض مبادئها ونظمها في الحكم وأنماط حياتها السياسية والاجتماعية والثقافية بالقوة وكذلك حال الإمبراطوريات الحديثة، مثل: بريطانيا في مستعمراتها ثم في الكومنولث، وفرنسا في مستعمراتها ثم الفرانكفونية. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية برزت عولمة الشيوعية متمثلة بالاتحاد السوفيتي وعولمته"4.

وأما (د.مصطفى محمود) فيقول: "العولمة مصطلح بدأ لينتهي بتفريغ المواطن من وطنيته وقوميته وانتمائه الديني والاجتماعي والسياسي، بحيث لا يبقى منه إلاّ خادم للقوى الكبرى"5.

---

1 المرجع السابق ، ص40
2 المرجع نفسه، ص 41
3 سيار الجميل، العولمة و المستقبل ، ص 32
4 مجلة المعرفة، العولمة: الخطر على الهوية والكيان، ص77
5 مجلة العربي، إعلام العولمة وتأثيره في المستهلك، ص12

والعولمة عند (د.محمد عابد الجابري) تستهدف ثلاثة كيانات: الدولة والأمة والوطن، ويسميها أيضاً بثقافة الاختراق، اختراق مقدسات الأمم والشعوب في لغاتها ودولها وأوطانها وأديانها1.

وتنتهي (د.نعيمة شومان) إلى أنه في ظل العولمة "تسلم البلاد الفقيرة لا إلى فقدان الاستقلال السياسي وإنما إلى العبودية، فكأن البلدان المدينة وكافة البلدان متوقفة عن تسديد الديون ولا تملك الخيار أو الرفض للمشاريع المعروضة عليها"2.

ويُجمع أطراف الندوة -التي كانت بعنوان: "طوفان العولمة واقتصادياتنا المسلمة"، والتي نشرت في مجلة "البيان" -على هذه المعاني التي مرت والخطورة الكبيرة للعولمة على اقتصاديات العالم الإسلامي خاصة3.

وأخيرًا يعرف (محمد فهيم يوسف) العولمة بأنها "الغرض الانفرادي لفهم يستند إلى مرجعية تخص حضارة معينة، باعتباره المفهوم الأسمى لحقوق الإنسان الذي ينبغي أن يسود العالم"4.

لقد سقنا آراء مفكرين غربيين وعربًا درسوا العولمة دراسة علمية شاملة، من أجل أن نقول إن قضية العولمة ليست مسألة آراء فردية مناهضة، وإنما اتفاق الرأي العام العلمي المنصف على حقيقة العولمة وآفاقها، لظهورها ووضوحها ونتائجها التي شملت الكرة الأرضية، من دون أن يكون هنالك أدنى شك في المقولات المقررة حول حقيقة العولمة وطبيعتها المستغِلة المهيمنة. والدليل على ذلك النتائج الرهيبة التي بدأت تظهر في العالم أجمع والتي يجمع عليها الباحثون أيضًا. ومن هذه النتائج:

أولاً: لقد قضى حوار الشمال والجنوب نحبه، كما قضى نحبه صراع الشرق والغرب. فقد أسلمت فكرة التطور الاقتصادي الروح، فلم تعد هنالك لغة مشتركة، بل لم يعد هناك قاموس

[1] د. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، ص147
[2] نعيمة شومان، العولمة بين النظم التكنولوجية الحديثة ، ص20
[3] مجلة البيان ، ص60
[4] جريدة الشرق الأوسط، حقوق الإنسان في ضوء التجليات السياسية للعولمة

مشترك لتسمية المشكلات، فالمصطلحات من قبيل الجنوب والشمال والعالم الثالث والتحرر لم يبق لها معنى[1].

ثانياً: من وجهة مُنظري العولمة: إن المجتمعات العاجزة عن إنتاج غذائها أو شرائه بعائد صادراتها الصناعية مثلاً، لا تستحق البقاء وهي عبء على البشرية أو على الاقتصاد العالمي الذي يمكن أن يعرقل نموها الذي يحكمه قانون البقاء للأصلح. ولذلك يجب إسقاطها من الحساب. ولا ضرورة بالتالي لوقوف حروبها الأهلية أو مساعدتها أو نجدتها[2].

ثالثاً: عاد الاستعمار الاقتصادي والسياسي والثقافي والاجتماعي من جديد في صورة العولمة بالاقتصاد الحر واتفاقية الجات والمنافسة والربح، وعالم القرية الواحدة، والتبعية السياسية، وتجاوز الدولة القومية، ونشر القيم الاستهلاكية، مع الجنس والعنف والجريمة المنظمة[3].

رابعا: غدا العالم الذي خضع للعولمة، بدون دولة، بدون أمة، بدون وطن، لأنه حوّل هذا العالم إلى عالم المؤسسات والشبكات، وعالم الفاعلين والمسيرين، وعالم آخر، هم المستهلكون للمأكولات والمعلبات والمشروبات والصور والمعلومات والحركات والسكنات التي تفرض عليهم. أما وطنهم فهو السيبرسبيس: أي الواقع الافتراضي الذي نشأ في رحاب الإنترنت وسائر وسائل الاتصال، ويحتوي الاقتصاد والسياسة والثقافة[4].

ودراسة كتاب فخ العولمة تثبت النتائج الآتية:

1. زيادة البطالة.
2. انخفاض الأجور.
3. تدهور مستوى المعيشة.
4. تقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة.

---

[1] هار الدشومان، فخ العولمة، ص61
[2] عالم الفكر، الصناعة العربية في مواجهة العولمة، ص13
[3] حسن حنفي...، ما العولمة؟، ص17
[4] د. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، ص148

5. إطلاق آليات السوق.
6. ابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي وقصر دورها في حراسة النظام.
7. تفاقم التفاوت في توزيع الثروة بين المواطنين.

يقول رئيس وزراء ماليزيا السابق (مهاتير محمد) الذي عانت بلاده من آثار العولمة في السنوات الأخيرة: "إن العالم المعولم لن يكون أكثر عدلاً و مساواة، وإنما سيخضع للدول القوية المهيمنة. وكما أدى انهيار الحرب الباردة إلى موت وتدمير كثير من الناس، فإن العولمة يمكن أن تفعل الشيء نفسه، ربما أكثر من ذلك، في عالم معولم سيصبح بإمكان الدول الغنية المهيمنة فرض إرادتها على الباقين الذين لن تكون حالهم أفضل مما كانت عليه عندما كانوا مستعمرين من قبل أولئك الأغنياء"[1].

وقد نتساءل، و بكل براءة عن مدى علمية وموضوعية الذين كتبوا في العولمة، سواء أكانوا أجانب أم عربًا؟

يجيبنا على ذلك (د. نجيب غزاوي) فيقول: "إن آراء دعاة العولمة فيها الكثير من التقريرية والتعميم والاستعجال والبعد عن الروح العلمية. أما آراء خصوم العولمة فيغلب عليها الطابع العلمي الموضوعي، فهي تستقرئ ملامح العولمة في مختلف مجالات الحياة وترصدها وتحللها إلى ما فيها من خطر على الهوية والكيان والسلاح والأمن العالميين" [2].

جذور العولمة

يتساءل الباحثون: هل العولمة بنت هذا الزمان المتأخر أم لها جذور ضاربة في التاريخ الأوربي القديم؟ يذهب البعض إلى أن العولمة ليست ظاهرة جديدة، بل بداياتها الأولى ترجع إلى القرن التاسع عشر، مع بدء الاستعمار الغربي لآسيا وأفريقيا والأمريكيتين، ثم اقترنت بتطور

[1] من محاضرة ألقاها في كوالا لامبور، في 24 يوليو 1996، نقلا عن مجلة الإسلام، ص19
[2] مجلة المعرفة، العولمة – الخطر على الكيان والهوية-، ص46

النظام التجاري الحديث في أوربا، الأمر الذي أدى إلى ولادة نظام عالمي متشابك ومعقد عرف بالعالمية ثم العولمة[1].

وآخرون يذهبون في هذا الإطار إلى أن مصطلح النظام العالمي كان مستخدمًا منذ مؤتمر (فيينا) عام 1815م الذي قاده (مترنيخ) رئيس وزراء النمسا، وجدده (بسمارك) الألماني في سبعينيات القرن التاسع عشر، ثم تجدد ثانية على يد (كلمنصو) الفرنسي في مؤتمر فرساي عام 1919م، ثم تجدد في (يالطا) على يد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية[2].

والحق أن الباحث الذي يدرس التاريخ منذ أقدم العصور التي ظهرت فيها الإمبراطوريات إلى اليوم، يلاحظ أن قوة عظمى تريد أن تنفرد دائمًا بحكم العالم، وإخضاعه إلى مبادئها، ف (اليونان) و(الرومان) و(الفرس) و(التتار) والإمبراطوريات الحديثة، كلها كانت تتجه هذا الاتجاه في الهيمنة والسيطرة. وأوربا الحديثة ذات التاريخ الاستعماري هي النموذج الجلي في محاولة السيطرة والهيمنة؛ لأن الحضارة الحديثة تعد نفسها حضارة عالمية مركزية؛ فهي عالمية في أفكارها ومنتجاتها، وهي مركزية لأنها تدور حول نفسها في قيمها المبعثرة. ولذلك فإنها حضارة لا تعترف بغيرها من الحضارات، ويصل الأمر بقادة هذه الحضارة إلى أن ينكروا أي حدث مهم وقع في العالم قبل عصر هذه الحضارة.

يقول الأستاذ (مالك بن نبي): "هذه الأقوال هي التي خلقت ثقافة الإمبراطورية الغربية التي تقوم على أساس السيادة العنصرية والاستعمار"[3].

ويرى البعض أن هيمنة العولمة على العالم اليوم بمواصفاتها الشاملة نتيجة لتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية، تمشي مع طبيعة الأشياء في تاريخ الغرب الحديث، وتمثل المرحلة الأخيرة محاولة جديدة للسيطرة على العالم ومحو الآخر.

---

[1] المستقبل العربي، إعلام العولمة، ص70
[2] المرجع نفسه، ص72
[3] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص27-28

ويعارض باحث آخر هذه النظرة ويذهب إلى أن العولمة ليست تطوراً عن الاستعمار الأوربي أو ظاهرة الثورة الصناعية، وإنما هي نظام كوني شامل جديد، مواصفاته لا تشبه مواصفات الإمبراطوريات السابقة[1].

وهناك باحثون يرجعون بدايات العولمة الحالية إلى السياسات التي ارتأت (أمريكا) أن تسيطر بها على العالم، غير أن الحرب الباردة بينها وبين (الاتحاد السوفيتي)، أجّلت تلك الهيمنة إلى سنة 1989م؛ حيث ضعف (الاتحاد السوفيتي) وظهرت فيه نتائج سياسة "البيريسترويكا" التي حمل لواءها السكرتير العام الأخير للحزب الشيوعي السوفيتي (ميخائيل جورباتشوف).

ويرجع صاحبا كتاب فخ العولمة البداية الحقيقية للعولمة إلى عام 1995م؛ حيث وجّه الرئيس السوفيتي السابق (جورباتشوف) الدعوة إلى خمسمائة من قادة العالم في مجال السياسة والمال والاقتصاد في فندق (فيرمونت) المشهور في (سان فرانسيسكو) لكي يبنوا معالم الطريق إلى القرن الحادي والعشرين. وقد اشترك في هذا المؤتمر المغلق أقطاب العولمة في عالم الحاسوب والمال وكذلك كهنة الاقتصاد الكبار، وأساتذة الاقتصاد في جامعات ستانفورد وهارفرد وأكسفورد. واشترك فيها من السياسيين، الرئيس الأميركي (جورج بوش)الأب، ووزير خارجيته (شولتز)، ورئيسة الوزراء البريطانية (مارجريت تاتشر) ورئيس وزراء مقاطعة سكسونيا وغيرهم[2].

والمشروع السياسي للنظام العالمي الجديد -الذي انتهى إلى العولمة- هو تفتيت الوحدات والتكوينات السياسية إلى كانتونات ودويلات صغرى ضعيفة ومهزوزة، ومبتلاة بالكوارث والمجاعات والصراعات والأزمات[3].

[1] سيار الجميل، العولمة و المستقبل: استرتيجية التفكير، ص34

[2] هار الدشومان...، فخ العولمة، ص22- 23،

[3] سيار الجميل، العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط ،ص57

ثانيا: تفاصيل و نتائج

هل للعولمة جانبٌ واحد، هو الجانب السلبي الذي ينعكس في الآثار السيئة والمضار والمخاطر التي تهدد استقرار المجتمعات الإنسانية، أم أن لها جوانب متعددة، منها السلبي، ومنها الايجابي؟.

نعتقد أن هذا السؤال يصحُّ أن نتخذه مدخلاً إلى فهمٍ أعمق للعولمة، على المستويات كافة، وبصورة خاصة على المستوى الثقافي، وإلى استيعابٍ أشمل لمضامينها.

والحق أنَ ما من نظامٍ أو منهج، أو فكرةٍ سياسيةٍ واجتماعية تتصل بحياة البشر، إلا ولها وجوه متعددة، على اعتبار أن الفكر الإنساني هو ذو منزع مزدوج من الخير والشر، وهما العنصران الكامنان في الضمير الإنساني. وعلى هذا الأساس، فإننا نرى أن للعولمة دوائر تتحرك فيها، وهي بذلك ليست دائرةً واحدةً منحصرة في حدود معلومة. وللإرادة الإنسانية تأثيرٌ في تحديد هذه الدوائر ورسم معالمها وضبط مساراتها.

وعلى الرغم من وضوح هذه الفكرة، فإن التركيز على الجانب الاقتصادي والسياسي للعولمة، جعلها تغيب في أحايين كثيرة، عن الأذهان، لدرجة أنّ معظم المفكرين في العالم، ومنهم طائفة من المفكرين في العالم الإسلامي، يغفلون عن الجوانب الأخرى للعولمة، وينزعون نحو إدانة العولمة جملةً وتفصيلاً، الأمر الذي تضيع معه عناصر كثيرة من الحقيقة، بحيث يقع الخلط بين الحق والباطل، وبين الواقع والمثال.

إنَّ رفض العولمة والتنديد المتكرّر عاليَ الصوت، بآثارها السلبية، والتركيز على نقض أسسها ودحض ادعاءات المروّجين لها، كل ذلك لن يؤثر في طبيعة الوضع الناجم عن هيمنة النظام العالمي الذي يفرض العولمة على العالم، ولن يكون للموقف المخالف أي تأثير إيجابي على العولمة، من حيث هي فكرة ومنهج وأسلوب ونظام وتيار عارم جارف يكتسح الحواجز ويدكّ المواقع.

ولذلك، فإنه من تمام الوعي المرحلي أن نلتمس للعولمة جوانبَ إيجابية، ونعمل ما وسعنا العمل، لتوظيف إيجابيات العولمة فيما ينفعنا في حياتنا العامة.

إن المسألة في حاجة شديدة إلى ضبطٍ منهجيٍّ نتحكَّم به في العولمة بأعلى ما نستطيع من قدرات. وبذلك نسلك طريقنا إلى الاِستفادة من العولمة على النحو الذي يدفعنا إلى الإسهام في الحضارة الإنسانية الجديدة، من موقعنا الثقافي المتميّز وبخلفيتنا التاريخية وبهويتنا الحضارية المتفردة.

إن هذا الموقف الإيجابي إزاء العولمة يتطلب منا أن ننخرط في المعترك الثقافي العالمي، وأن ندفع بمجتمعاتنا في اتجاه التفاعل المتحرّك مع المتغيّرات المتسارعة، حتى نفهم ما يجري حولنا، ونستوعب التحوّلات الكبرى التي تعيشها الإنسانية في هذا العصر، ولئلا نبقى قاعدينَ نندب حظوظنا، وعاجزينَ نتفرّج على عالم يتطور ويتقدم.

إن الهزيمة النفسية أمام العولمة تأتي من اعتبار ظاهرة العولمة حتميةً. وهذا أمرٌ مبالغٌ فيه، وهو لا يعبّر عن حقيقة هذه الظاهرة، لأن اعتبار ظاهرة العولمة حتميةً قد لا يكون في الحقيقة أكثر من اعتراف المرء بأنه لم يعد لديه طاقة باقية للمقاومة، أي أنه قد نفد جهده، وأصبح مستعداً للتسليم. فإذا كان هذا هو اختيار بعضهم، فهو ليس مُلزماً لغيرهم، ومن الظلم على أي حال، أن يوصف بالحتمية اختيارٌ لا يعكس إلا نفاد الطاقة أو استعجال المكافأة. وهو موقفٌ ظالم، لأنه يحمّل عدة أجيال قادمة عبءَ فشل جيلٍ بعينه، فاعتبار ظاهرة ما حتميةً، يتوقف أيضاً على المدى الزمني الذي يأخذه المرء في اعتباره

إن حقائق الأشياء تؤكد أن العولمة لا تمثّل خطراً كاسحاً ومدمراً، إلا على الشعوب والأمم التي تفتقر إلى ثوابت ثقافية، أما تلك التي تمتلك رصيداً ثقافياً وحضارياً غنياً، فإنها قادرة على الاِحتفاظ بخصوصياتها والنجاة من مخاطر العولمة وتجاوز سلبياتها.

ومن الأساليب التي يستخدمها مهندسو العولمة ومروّجوها، تنميةُ الشعور بالهزيمة والاِستعداد للاستسلام أمام ما يريدون فرضه على الشعوب والحكومات، من خلال إضعاف

الإحساس بالذاتية، وبالتميّز، وبالإعتزاز بكل ما يمتُّ إلى التراث الحضاري والرصيد الثقافي بصلة.

ومن هنا نجد أن الرفض العالمي للعولمة يَتَنَامى باطّراد، وإن كان لا يملك أن يؤثر في صدّ هجمات العولمة على أمم الأرض وشعوبها، على الأقل في المدى المنظور، لأننا نعتقد جازمين، أن كل نظام ظالم للإنسان، أو عقيدة قاهرة للفطرة، أو منهج يفرض الهيمنة على الإرادة الإنسانية ويتحكّم في أشواق النفس البشرية الروحية وتطلعاتها الثقافية وطموحها الحضاري، هو إلى انهيار وزوال، لأنه يصادم سنة اللّٰه في خلقه، ويَتَنَافَىَ مع فطرة اللّٰه التي فطر الناس عليها.

وأمام عنفوان العولمة وضغوطها القوية، لا ينبغي أن نستسلم ونذعن لإرادة الأقوياء المتحكمين في أَزِمَّة الأمور في ظل النظام العالمي الجديد. ولا يتعارض هذا الموقف مع ما هو مطلوب منا اتخاذُه، مع ما ذكرناه آنفاً.

إن الخطأ المنهجي الذي يقع فيه طائفة من المفكرين من العالم العربي الإسلامي الذين بحثوا ظاهرة العولمة، يكمن أساساً في أنهم بدلاً من أن يرسموا الخريطة الجديدة التي يتعيّن على المجتمعات العربية الإسلامية فهمها والعمل في حدودها، ويُضيئوا أمام أصحاب القرار والنخب المثقفة والمفكرة، المصابيح لتسلّط على الحقائق كما هي، لا كما نتوهمها أو نتخيلها، راحوا يُسهبون إسهاباً مفرطاً، في تعداد مساوئ العولمة وأضرارها والمخاطر التي تتسبَّب فيها، فكانوا بصنيعهم هذا، يقومون بشقٍّ من الواجب، ولا ينهضون بمسؤوليتهم كاملة.

إن أحداً منا لا يجادل في أن ثمة شواهد كثيرة تشير إلى أن قوى العولمة المعاصرة ليست سوى امتداد عضوي وأيديولوجي لقوى الاِستغلال والسيطرة والاِحتواء وتعمل على تكريس التبعية من جانب الدول الأقل نموّاً لتلك الأكثر نموّاً، وإن كانت آليات تكريس التبعية قد اختلفت في ظل العولمة، من الاِستعمار التقليدي، إلى اللجوء لسياسة الضغط الاِقتصادي.

فهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها. ولكن هل تقف مسؤوليتنا عند هذا الحد، وهو الجهر بهذه الحقيقة، أم أن المسؤولية تمتدُّ وتتشعب وتَتَوَاصَلُ؟.

إن المنهج في بحث ظاهرة العولمة، هو إلى الوصف التحليلي والنقد السياسي من منطلق أيديولوجي، أقرب منه إلى المعالجة العلمية المستنيرة المبرأة من كل هوى سياسيٍّ أو أيديولوجيّ. ولذلك كان من السلبيات التي وقع فيها معظم من عالج قضية العولمة من خلال هذا المنهج، العزوفُ عن الموضوعية المجردة تحت تأثير الفكر الشمولي الذي كان يسود في عهود القُطْبَين الأكبرين في زمن الحرب .

1- عولمات لا عولمة:

إن الفكر المجرد يقتضي القول إن العولمة ظاهرة مركبة ، لها تجلياتها وتفاصيلها التي ينبغي أن تعرف، وكل تسطيح للظاهرة أو اختزال لها إنما هو تضييع لبوصلة الوعي. و كل معالجة لها خارج الفهم التاريخي للظواهر إنما هو في النهاية إصدار أحكام ذات نزوع وعظي يقف إما مع العولمة أو ضدَها.

البحث في مستويات العولمة و تجلياتها يساعد على تأكيد الموقف و ضبط الموقع.

أ- عولمة الاقتصاد

يرى جمع من الباحثين أن عولمة الاقتصاد العالمي بدأت بقيادة أمريكا منذ عام 1944م، والتي انبثق منها الصندوق الدولي ليقوم حارساً على النظام النقدي الدولي والبنك الدولي ليعمل على تخطيط التدفقات المالية، طويلة المدى، وإنشاء منظمة التجارة العالمية التي أدت إلى اتفاقية "الجات" والتي حوّلت السياسة التجارية للدول المستقلة إلى شأن دولي وليس عملاً من أعمال السيادة الوطنية، من خلال النظام النقدي العالمي والتحكم في حركة رؤوس الأموال، ومن خلال الشركات المتعددة الجنسيات التي لأمريكا فيها نصيب الأسد.

ولقد أخذ البنك الدولي بتوجيه من الولايات المتحدة الأمريكية بإجبار كثير من الدول الإسلامية، باعتبارها إحدى مكونات مجموعة دول الجنوب، على إعادة هيكلة اقتصادياتها، وفقاً لهذه السياسة الإمبريالية، فاتجهت هذه الدول إلى الخارج لجذب رؤوس الأموال الأجنبية، وتبني مفهوم القطاع الخاص، من خلال استخدام آليات السوق الحرة، وما يتطلبه ذلك من

التقليص الواضح للملكية العامة وزيادة الفوارق الاجتماعية، ورهن أجيال المستقبل بالديون الخارجية[1].

ولقد تقررت هذه السياسة الاقتصادية الأخيرة نهائياً عندما اجتمع طائفة من المُنظرين الأمريكيين وقدموا قضايا لتثبيت السيطرة الأمريكية على العالم، هذه القضايا هي:

أ) استعمال السوق العالمية كأداة للإخلال بالتوازن في الدول القومية.

ب) السوق مجال للمنافسة، أي فتح المجال لسيطرة الشركات المتعددة الجنسيات العملاقة، لغرض فرض نمط اقتصادي معين على البلدان الأخرى، دون أي اعتبار لمصالح الكادحين.

وتلك الشركات العملاقة تكونت بالدرجة الأولى من الشركات الأمريكية، ثم الأوربية ثم اليابانية متكاتفة متعاونة[2].

ويمكن هنا أن نعرض إحصائية أولية لقوة تلك الشركات المتعددة الجنسيات. فهناك 350 شركة كبرى لتلك الدول تستأثر بما نسبته 40% من التجارة الدولية. وقد بلغت الحصة المئوية لأكبر عشر شركات في قطاع الاتصالات السلكية واللاسلكية 86% من السوق العالمي، وبلغت هذه النسبة 85% من قطاع المبيدات وما يقرب من 70% من قطاع الحاسبات و60% في قطاع الأدوية البيطرية و35% من قطاع الأدوية الصيدلانية و34% في قطاع البذور التجارية[3].

ولا شك أن هذه الاحتكارات ستؤدي إلى إقامة الحواجز بين الشعوب، وسيصبح وسيلة للسيطرة والهيمنة على مصادرها.

وهذه الشركات العملاقة هي في حدود (15) شركة، هم السادة الفاعلون الذين يطبقون نظرية: إنتاج أكثر ما يمكن من السلع والمصنوعات بأقل ما يمكن من العمال، من

[1] المستقبل العربي، العولمة و السوق العربية المشتركة، ص142-143
[2] حسن حنفي...، ما العولمة؟، ص43
[3] البيان، نهاية الجغرافية، ص102

أجل تركيز الثروة العالمية في أيدي الرأسماليين الجشعين من أصحاب تلك الشركات الأمريكية وحلفائها1.

ونتيجة لهذه السياسة، تنتهي العولمة الاقتصادية إلى فتح الأسواق العالمية أمام المنتجات الغربية دون عائق أو ضابط، وعليه فلن تستطيع المنتجات المحلية مواجهة المنتجات المستوردة ومنافستها، مما يعني تعثر العديد من الأنشطة الاقتصادية الوطنية. ويكون البديل المتاح هو إما الاقتصار على الاستيراد، وهذا البديل قصير الأمد؛ حيث ستنضب أرصدة السيولة المالية، ويزيد التضخم نتيجة للركود الاقتصادي، وبيع الأصول الاقتصادية إلى الشركات العالمية بحجة الإصلاح الاقتصادي. وهو المطلوب؛ لأنه سيؤدي إلى الاستسلام النهائي لسياسات الإمبريالية الأمريكية2.

إن هذه الشركات تعد الأرض كلها سوقًا كبيرًا لها، بما فيها ومن فيها بحيث تتنافس في اقتسام هذه الأراضي دون أي اعتبار لقيم أوأخلاق3.

وهي نادرًا ما تدخل في شكل استثمارات مباشرة طويلة الأمد، وإنما تدخل بما يعرف بالأموال الطائرة، في استثمارات قصيرة الأجل وسريعة الفوائد والتي تحقق لها عوائد هائلة، دون أن يكون لذلك مردود على التنمية المحلية. وإن حدث وقدمت استثمارات مباشرة، فإنها قبل ذلك تأخذ ما يكفيها من التسهيلات والضمانات السياسية والاقتصادية التي لا تحظى بها رؤوس الأموال المحلية، وهو ما يعرقل الاقتصاد المحلي، زيادة على ذلك، فإن معظم أنشطتها تقتصر على السلع الاستهلاكية ذات العائد الأسرع نتيجة للنمط الاستهلاكي السائد

و خلاصة الأمر أن هذه الشركات تقوم بامتصاص الفوائض المالية لدى المستهلكين عن طريق الإغواء والإغراء الاستهلاكي4.

[1] محمد عابد الجابري، قضايا الفكر العربي، ص142
[2] البيان، العولمة : حلقة في تطور آليات السيطرة، ص55
[3] البيان، نهاية الجغرافية، ص103
[4] المرجع السابق. ينظر أيضاً: البيان، طوفان العولمة واقتصادياتنا المسلمة، ، ص72، ونعيمة شومان، العولمة في النظم التكنولوجية الحديثة

ومن هنا فإن نسبة كبيرة من الفساد المنتشر في دول العالم الثالث هي من صنع الشركات المتعددة الجنسيات التي تتركز مقارها في الدول الصناعية، وتعمل على تقديم الرشاوى الكبيرة لمسئولي الدول المتخلفة من أجل الفوز بالصفات دائما[1].

وبهذا يتحول العالم كله إلى سوق استهلاكية لمنتجات الدول الصناعية وعلى رأسها أمريكا، فهي تمثل عصا استعمارية بيد حكومة عالمية خفية لها مؤسساتها: كالبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، واتفاقية التجارة الحرة[2].

وعلى ذلك، فإن النتيجة المباشرة لفخ العولمة هي اللامساواة، وهذا يعني أن البؤس والشقاء وغياب الديمقراطية وضياع كل حلم بالرفاهة ستكون بمثابة علامة فارقة لنظام العولمة في البلاد التي وقعت في فخها[3].

والكارثة التي يمكن أن تحدث لأي بلد تغزوه العولمة، انتشار الفقر وفقدان العمل البشري لقيمته، وتوجيه هدام يقضي على فرص العمل، فتنتشر البطالة، وينقسم المجتمع إلى مجتمع أغنياء طفيليين خدام للشركات الكبرى المتعددة الجنسيات، وأكثرية مسحوقة سرقت خيراتها كي تدخل في جيوب رأسماليي العولمة المتوحشين الذين يملك (358) منهم في الغرب ما يملكه (2.5) مليار من سكان المعمورة؛ لأن النظام المعولم سيخفض نسبة الحاجة إلى العمال إلى 20% أي سيظل 80% منهم عاطلون.

والنتيجة التي يستخلصها المختصون هي: إذا كان النمو الاقتصادي في الماضي يخلق مناصب الشغل، فإن النمو الاقتصادي في إطار العولمة يؤدي إلى تخفيض عدد مناصب الشغل، لأن بعض القطاعات في مجال الإلكترونيات والإعلاميات والاتصال وهي من القطاعات الأكثر رواجًا في العالم لا تحتاج إلاّ إلى عدد قليل من العمال. فالتقدم التكنولوجي يؤدي في إطار العولمة إلى ارتفاع البطالة، وهو ما سيؤدي حتمًا إلى أزمات سياسية[4].

---

[1] البيان، العولمة بين منظورين، ص124
[2] المرجع نفسه، ص122
[3] نزوى، تأملات في عصر العولمة، ص73
[4] محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص143

ومحصلة القول: إن العولمة الموجهة توجيهًا مباشرًا من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها من اليهود والأوربيين، تريد عن طريق المخلب الاقتصادي أن تتمكن من الشعوب عن طريق استغلال حاجياتها الاستهلاكية وقتل المبادرات الوطنية، وتوجيه ثرواتها وهيكلة اقتصادها بتدخل مباشر من المؤسسات المالية والتجارية الخاضعة لها، والتي تغرقها بالديون وفوائد الديون التي لا تتخلص منها ومن ويلاتها، يساعد في ذلك مخططان آخران يمشيان جنبًا إلى جنب بجانب المخطط الاقتصادي، وهما مخطط إخضاع الدولة الوطنية واستلاب الفكر والثقافة عن طريق الفضائيات الكونية التي تبثها مئات الأقمار الصناعية.

ب – العولمة والدولة الوطنية:

يقول الفيلسوف الفرنسي (جارودي): "والتيار المهيمن في صفوف الاقتصاديين الرسميين والسياسيين هو الدفاع عن الليبرالية بدون حدود، والداعي إلى اختفاء الدولة أمام السلطة المطلقة للسوق، وحتى لا يبقى أي عائق أمام الاحتلال الاقتصادي"1. إن العولمة تحتاج إلى السيطرة على الدولة الوطنية وإخضاع قوانينها لحركتها وحريتها في العمل. وبذلك تؤدي إلى حرمان الدول من حق السيادة المطلقة وصولاً إلى مفهوم جديد للسيادة يركز على العالم أجمع بصفة الوحدة السياسية التي تحل محل الدولة التقليدية المعتادة2. ومن هنا فإن سيادة الدولة بمعناها الأساسي يتم إعادة تعريفها الآن في الأقل بوساطة قوى العولمة والتعاون الدولي.

والسيادة في هذا التعريف هي الإدارة الدولية التي ترسم خريطة جديدة للعالم تتوافق مع التصورات العالمية، وهذه الخريطة الجديدة، لن يكون فيها حدود خاصة بكل دولة، بل سيصبح العالم كتلة واحدة متعاونة متكافئة متراضية مسالمة آمنة! كما يقولون زورًا وبهتانًا تخالف الواقع الذي تسيطر عليه العولمة ومخالبها3.

وقد يسأل باحث فيقول: وهل تبقى الدولة الوطنية في ظل العولمة؟ و الجواب: نعم تبقى الدولة في ظل العولمة، كأنها إدارة عامة جديدة، أي أنها تتحول إلى حكومة أعمال.

---

1 سيار الجميل، العولمة والمستقبل: استراتجية تفكير، ص46

2 جريدة الشرق الأوسط، السيادة في عصر العولمة

3 البيان، سيادة الدولة أم سيادة العولمة، ص94

وهو ما يترتب عليه وهن الدولة وشرعيتها. ومبعث ذلك يتمثل في أن هذه الدولة تسعى لنيل ثقة الأسواق العالمية على حساب مهامها الأخرى1.

ولكن ما مهامها الأخرى؟!.

يجيبنا صاحبا كتاب فخ العولمة فيقولان: "إنهم يهددون بهروب رؤوس أموالهم: أي الشركات المتعددة الجنسيات، ما لم تستجب الحكومات لمطالبهم، وهي مطالب عديدة، مثل منحهم تنازلات ضريبية سخية، وتقديم مشروعات البنية التحتية لهم مجانًا، وإلغاء وتعديل التشريعات التي كانت تحقق بعض المكاسب للعمل والطبقة الوسطى، مثل: قوانين الحد الأدنى للأجور، ومشروعات الضمان الاجتماعي والصحي وإعانات البطالة، وبما يقلل مساهماتهم المالية في هذه الأمور وخصخصة المشروعات، وتحويل كثير من الخدمات العامة التي كانت تقوم بها الحكومات، لكي يضطلع بها القطاع الخاص، وإضفاء الطابع التجاري عليها.2

ومجمل القول: إنه في ظل العولمة، تتحول الشركات المتعددة الجنسيات إلى دول حقيقية تقوم بتفكيك الدول وإعادة بنائها من جديد، وجعلها تتنازل تحت ضربات الرأسمالية الاحتكارية عن حقوقها وحدودها الجغرافية وواجباتها تجاه مجتمعاتها، كي تقيم دولة عالمية، قادتها ورؤساؤها رؤوس الاحتكارات العالمية الجشعة من اليهود وغيرهم من الأمريكان وحلفائهم الخاضعين لتوجيهاتهم، كي تمتص دماء الكادحين في المجتمعات الإنسانية، وتقضي على شعورهم الوطني الذي هو شعور بدائي عند الاقتصادي المعولم الشهير (ليندبيرج)، ولكل هذا اختار عبارة "نهاية الدولة القومية" عنوانًا لكتابه الذي ألفه عام 1995م.3

ج – عولمة الفضاء الكوني:

ويصح أن نسميها إمبراطورية الفضاء الكوني؛ لأن مجالها الكرة الأرضية كلها، وما حولها، كما قيل تحويل العالم إلى قرية واحدة عن طريق مئات الأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء الأرضي، وترسل البرامج المنوعة في كل يوم إلى كل عائلة من عوائل بلدان العالم،

[1] المستقبل العربي، العولمة – مشكلات الحاضر وتحديات المستقبل- ، ص65
[2] هار الدشومان...، فخ العولمة، المقدمة، ص10،15، 16
[3] مجلة العلوم الاجتماعية، العولمة : المفهوم، المظاهر، المسببات، ص62

لتستقبلها أجهزة التلفاز والإنترنت، لتشكل في النهاية سلطة تكنولوجية ذات منظومات معقدة لا تعترف بالحدود الوطنية أو الفضائية أو البحرية، تقودها شبكات اتصالية معلوماتية من خلال سياسة العولمة واقتصادها وثقافتها وأفكارها وأنظمتها الاجتماعية، كي تقيم عالما جديدًا تتسلل دون استئذان إلى عقول وقلوب ونفوس البشر جميعا دون استثناء من دون رقيب من دولة أو أمة أو دين أو وطن.

وهذه الشبكات يعود معظمها إلى قادة العولمة من الرأسماليين الاحتكاريين الأمريكيين وغيرهم ممن يدورون حولهم، لكي يمحوا ذاكرة الشعوب ويفرغوها من انتماءاتهم وأصالتهم وثقافتهم وأنظمتهم الاجتماعية، كي يقعوا صرعى أمام مغريات الحياة الرأسمالية الأمريكية وأنماطها الاجتماعية والأخلاقية في التفكير واللبس والأكل والترفيه ودغدغة الأحلام والقيم والوعي، بحيث يسهل تكريس نوع معين من السلع والخدمات والأفكار، والذي يخضع إلى النظام المعولم الذي يُراد له أن يسود العالم أجمع[1].

ولأهمية هذا المجال الرهيب في عالم العولمة تم عقد أربع مؤتمرات دولية لبحث قضاياه: (جنيف 1992، بوينس أيرس 1994، بروكسل 1995، جوهانسبرج 1996)، نجح خلالها الأمريكيون من تسويق فكرتهم حول مجتمع المعلومات العالمي والضغط لفتح حدود أكبر عدد ممكن من البلدان أمام تدفق المعلومات.

يقول العالم الأمريكي المعروف (ناعوم تشومسكي): "إن العولمة الثقافية ليست سوى نقلة نوعية في تاريخ الإعلام، تعزز سيطرة المركز الأمريكي على الأطراف، أي على العالم كله"[2]. إن هيمنة (أمريكا) ناتجة من أن 65% من مجمل المواد والمنتجات الإعلامية والإعلانية والثقافية والترفيهية تحت سيطرتها، ومن إنتاجها. هذا الأمر الذي أدى إلى توجس بعض الدول الغربية وخوفها على أجيالها.

[1] المستقبل العربي، إعلام العولمة، ص 76، ومستقبل العولمة، ص17
[2] البيان، العولمة بين منظورين، ص125

وختامًا، فإن المجال الإعلامي أكثر أوجه العولمة سلبية؛ إذ يسيطر أصحاب المصالح التجارية والاقتصادية على الإعلام، عبر التوظيف المالي والسيطرة الإدارية والفنية، ويستخدمونه في تشويه معرفتنا بالعالم ووعينا بأنفسنا ومعرفة الآخرين ووعيهم بأنفسهم وقضاياهم[1].

وأخيرًا، فإن عولمة الفضاء الكوني بكل أبعاده، من أخطر القضايا التي تمس العالمين العربي والإسلامي معا، بسبب سيطرة اليهود على أجهزة الإعلام والاتصالات، وما يرافق ذلك من تشويه الحقائق وطمس معالم الحضارة العربية الإسلامية، وصورة العربي المعاصر وتراثه لدى الرأي العام العالمي[2].

د – العولمة الاجتماعية:

لما كان المبدأ الذي ينطلق منه عالم العولمة من جعل العالم قرية كونية واحدة تخضع للتوجيهات الأمريكية اليهودية، إذن فالوصول إلى مجتمع واحد، ذي ملامح واحدة، وأنظمة اجتماعية واحدة وأخلاق وعوائد واحدة سيكون من أولويات العولمة؛ لأن صياغة المجتمع صياغة واحدة يسهل مهمة الأجنحة الهدامة الأخرى للعولمة في إفساد المجتمع وتفريغه من القيم الأصيلة، والأخلاق الحميدة النابعة من الأديان السماوية، والفطرة الإنسانية العقلية، حتى لا تقوم له قائمة من الرجولة والشهامة والكرامة أمام مخطط العولمة الرأسمالية الأمريكية اليهودية الجشعة.

لقد دفعت العولمة الأمم المتحدة التي تسيطر عليها وعلى مقرراتها، ولا سيما في عقد التسعينيات إلى عقد مؤتمرات بعناوين متعددة لتغيير النظام العام في المجتمعات، ولاسيما نظام الأسرة.

– في عام 1950 حاولت الأمم المتحدة عقد الدورة الأولى لمؤتمراتها حول الأسرة والمرأة بعنوان: تنظيم الأسرة في (القاهرة)، لكن الحكومة المصرية يومئذ لم توافق على ذلك.

[1] مجلة المعرفة، العولمة والخطر على الهوية والكيان، ص43

[2] المرجع نفسه

– وفي عام 1975 عقدت الأمم المتحدة مؤتمر (المكسيك) دعت فيه إلى جريمة الإجهاض للمرأة والحرية الجنسية للمراهقين والمراهقات وتنظيم الأسرة لضبط السكان في العالم الثالث، وأخفق هذا المؤتمر أيضًا.

– عُقد في (نيروبي) عام 1985م مؤتمر بعنوان: إستراتيجيات التطلع إلى الأمام من أجل تقديم المرأة.

– مؤتمر السكان والتنمية الذي عُقد في (القاهرة) عام 1994م، ودعا فيه إلى قضايا تغيير حياة المرأة والأسرة من الناحية الدينية.

– مؤتمر (بكين) عام 1995 تحت عنوان المساواة والتنمية والتنظيم.

– مؤتمر السكان والتنمية والتنظيم في (إسطنبول) عام 1996م.

وتتضمن القرارات المقترحة أمورًا، مثل: فرض حق الإنسان في تغيير هويته الجنسية وأدواره المترتبة عليها، ومن ثم الاعتراف رسميًا بالشواذ والمخنثين، والمطالبة بإدراج حقوقهم الانحرافية ضمن حقوق الإنسان، ومنها حقهم في الزواج وتكوين الأسر والحصول على أطفال بالتبني أو تأجير البطون، وتطالب وثيقة القرارات بحق الفتاة والمرأة في التمتع بحرية جنسية آمنة مع من تشاء. وتطالب بحق المراهقات الحوامل في مواصلة التعليم دون إدانة لهذا الحمل السفاح.

وقد أفصح (جارودي) عن نوايا مقررات مؤتمر (القاهرة) في الرسالة التي وجهها للمؤتمر ونشرتها صحيفة الشعب في (القاهرة) بعددها 1994/9/16م[1].

والغريب أن رئيسة جمعية الأمهات الصغيرات في (أمريكا) تحذر المسلمين في مؤتمر (القاهرة) فتقول: "لقد دمّروا المجتمع الأمريكي وجاءوا الآن بأفكارهم للمجتمعات الإسلامية حتى يدمروها ويدمروا المرأة المسلمة ودورها فيها."[2]

[1] ينظر: د. عبد الحسين جاد، وثيقة مؤتمر السكان والتنمية، رؤية شرعية، ص55-70

[2] أحمد منصور، سقوط الحضارة الغربية: رؤية من الداخل، ص22

وقد عُقد في (نيويورك) مؤتمر المرأة لعام 2000م، وقدمت فيه الدول المعولمة على رأسها (الولايات المتحدة الأمريكية) المقررات السابقة وطلبت فرضها على العالم. والدول التي تُوقِّع على هذه المقررات ستكون ملزمة بتغيير قوانينها بما ينطبق على تلك القرارات الإباحية التي تؤدي إلى هدم الأسرة وإطلاق الحرية الجنسية وإقرار الشذوذ وشل سلطة الأبوين وحرية الإجهاض وإلغاء نظام الميراث1.

وفي سبيل دفع تلك المقررات إلى الأمام دفعت حكومات العولمة الدوائر المالية العالمية المؤيدة إلى الدعم المالي من أجل الإسراع بتنفيذ تلك القرارات الإباحية والمحطمة للنظام الديني في رعاية الأسرة وتنشئتها2.

ولتنفيذ مخططاتهم في هدم كيان المجتمع الإسلامي من خلال المرأة لأهمية دورها في بناء كيان الأسرة والمجتمع ساروا في ثلاثة مسارات في آن واحد، وهي:

– التمويل الأجنبي الأمريكي للجمعيات الأهلية النسائية، غير الإسلامية، من أجل تنفيذ مخططات إخراج المرأة المسلمة من الأخلاق الإسلامية.

– الاتفاقيات الدولية الخاصة بحماية حقوق الإنسان وإزالة آثار كافة أشكال التمييز ضد المرأة (كذا بالنص)، وإلزام الدول الإسلامية بالتوقيع عليها مقابل إعفائها من بعض الديون التي عليها.

وإذا قرأنا البحوث التي تُلَقى في المؤتمرات التي تُعقَد في بعض البلاد الإسلامية، وجدناها جميعها تريد إخراج المرأة المسلمة من النظام الاجتماعي الإسلامي الذي ينظر إلى المرأة من خلال فطرتها واستعداداتها وكرامتها.

وهنالك محاولات لتضليل الرأي العام وإيهام المرأة المسلمة أن القهر كله واقع عليها، وأن هذه الاتفاقية سترفع عنها الجور والظلم، وأن الأمم المتحدة ستحررها من سطوة مجتمعها مع أنها تريد هلاكها وهلاك مجتمعها1.

---

[1] وثيقة برامج عمل المؤتمر الأول للسكان والتنمية بمصر، من 5-15/ 1994، الفصل السابع، الفقرات 1، 2، 3، 4، 5 والمنهل، العولمة بين منظورين، ص127، والمرأة المسلمة ومواجهة تحديات العولمة، ص84

[2] المجتمع الكويتية، عدد 1406

– مؤتمرات المرأة التي تحدثنا عنها قبل قليل والتي يقصد بها هدم المجتمعات البشرية، ولا سيما المجتمعات الإسلامية.

وملخص القول: إن العولمة تعني نهاية التاريخ، وهو مفهوم يعني سيطرة النموذج الرأسمالي على العالم بعد انتهاء الشيوعية. كما تعني نهاية الجغرافية، وهي تعني اختراق الشركات المتعددة الجنسيات لحدود الدول. كما تعني نهاية الدول عن طريق التحرك تحت مظلة الشرعية الدولية للتدخل المباشر في شؤونها. وتعني أيضًا نهاية الهوية، أي القضاء على الخصوصية. كما أنها أخيرًا تعني نهاية الأيديولوجيا والتي تعني بدورها القضاء على الدين والأخلاق والقيم2.

2– مجال العولمة الثقافية :

العولمة، كما أسلفنا القول، منظومةٌ متكاملةٌ يرتبط فيها الجانبُ السياسيُّ بالجانب الاِقتصاديّ، والجانبان معا يَتَكَامَلاَنِ مع الجانب الاِجتماعي والثقافي، ولا يكاد يستقل جانبٌ بذاته. وعلى هذا الأساس، فإن العولمة الثقافية هي ظاهرةٌ مدعومةٌ دعماً محكماً وكاملاً، بالنفوذ السياسي والاِقتصادي الذي يمارسه الطرف الأقوى في الساحة الدولية. وللوقوف على الصورة الواضحة للأجواء التي تمارس العولمة الثقافية في ظلها نفوذَها على الشعوب والأمم، نسوق فيما يلي، باختصارٍ وتركيز، طائفة من المعلومات التي تُنشر وتداولها الصحافة العالمية المتخصصة والمواكبة لثورة المعلوماتية التي هي الأساس الراسخ للعولمة الثقافية، والتي تشكل القوة الضاربة للنظام العالمي الجديد.

إن تكنولوجيا المعرفة، هي قوة الدفع للعولمة الثقافية. وفي ظل النقلة الجديدة والمتطورة جداً لتكنولوجيا المعرفة، يبدو العالم منقسماً إلى ثلاثة أقسام :

– إن 15 بالمائة من سكان العالم يوفّرون تقريباً كلَّ الاِبتكارات التكنولوجية الحديثة.

[1] ينظر: تفاصيل هذه المؤامرة العالمية في المنهل، المرأة المسلمة ومواجهة تحديات العولمة، ص84-87
[2] طوفان العولمة، ص64

– إن 50 بالمائة من سكان العالم قادرون على استيعاب هذه التكنولوجيا استهلاكاً أو إنتاجاً.

– إن بقية سكان العالم، 35 بالمائة، يعيشون في حالة انقطاعٍ وعزلةٍ عن هذه التكنولوجيا.

وإذا كان هذا الواقع لعالم اليوم يعني شيئاً، فإنه يعني أن مقولة (القرية العالمية) التي أطلقها في عام 1962 (مارشال ماك لوهن) لم تصح. ولا يبدو أنها سوف تصح في المستقبل المنظور، على الرغم من كثرة استخداماتها في الأدبيات الإعلامية والثقافية الحديثة .

وهذا ما يشير إلى أن ظاهرة العولمة الثقافية تبدو محدودة التأثير، على الرغم من عنفوانها وعنفها وشراستها وقوة النظام العالمي الذي يمهد لها السبيل ويفتح أمامها الآفاق.

ولكن على الرغم من ذلك كلِّه، فإن الآثار التي تُحدثها العولمةُ في الشعوب التي تكتسحها، بالغة الضرر، نظراً إلى سوء الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية في النصف الأكبر من الكرة الأرضية، ويندرج في هذا الإطار، العالمُ الإسلاميُّ الذي لا سبيل إلى تجاهل المعاناة الشديدة التي يعانيها معظم بلدانه على الصعيدين الإقتصادي والإجتماعي، بصورة خاصة.

إن العولمة الثقافية تتغلغل في المجتمعات الفقيرة ذات الخصائص التي تفتقد القدرة على المقاومة، حتى وإن لم تفتقد الإحساس بالتميّز. وتتبيّن لنا حقيقة الأوضاع العامة في العالم الإسلامي، من المعلومات الإحصائية التالية :

– يبلغ عدد سكان العالم في الوقت الحاضر، ستة مليارات نسمة. وهذا العدد يزداد سنوياً بنسبة مائة مليون نسمة، و90 بالمائة من الزيادة تقع في 127 دولة، وكلها من العالم النامي التي لا تستطيع أن تستوعب هذه الزيادة الديموغرافية المطَّردة. ويقع العالم الإسلامي في القلب من هذا العالم النامي.

– مع إطلالة القرن الحادي والعشرين، فإن ثلثَ سكان العالم يعيشون تحت خط الفقر (أي تحت معدل دخل سنوي يبلغ ثلاثمائة 300 دولار)، والأكثرية الساحقة من شعوب العالم الإسلامي مشمولة بهذه الظاهرة.

– استناداً إلى دراسات إحصائية لمنظمة "اليونيسيف"، فإن 12 مليون طفل تحت سن الخامسة، يموتون سنوياً نتيجة أمراض قابلة للشفاء. وهذا يعني أن كل يوم يموت 33 ألف طفل لأسباب يمكن تجنبها بما فيها سوء التغذية. وتشمل هذه الدراسة أطفالاً من العالم الإسلامي من بنغلاديش حتى موريتانيا.

– واستناداً إلى إحصاءات الأمم المتحدة أيضاً، فقد اقتُلع أكثر من 75 مليون إنسان من بيوتهم في الربع الأخير من القرن العشرين بسبب الحروب والصراعات الدينية والإثنية والقبلية، ويطل القرن الحادي والعشرون، وهناك أكثر من 60 مليوناً لا يزالون في حالة تهجُّر. وهنا أيضاً، فإن نسبة عالية من المهجَّرين هم من المسلمين العرب والأفارقة والآسيويين.

– تدخل أكثر من 75 دولة، القرن الحادي والعشرين، وهي خاضعةٌ كلياً أو جزئياً، لمشيئة البنك الدولي، مستسلمةً لإرادته، منفذةً لسياسته، وذلك تجنباً لإعلان عجزها وإفلاسها. وبموجب ذلك تلتزم هذه الدول بتوجيه اقتصادياتها نحو عدم النموّ، ونحو تخفيض الإنفاق، ونحو وقف الدعم على بعض المواد الإِستهلاكية التي تقدمها لمساعدة شعوبها الفقيرة. وبعض هذه الدول من العالم الإسلامي.

إن العولمة الثقافية تُفرض على العالم الإسلامي، في ظل هذه الأوضاع الصعبة، وفي هذا المناخ القاتم، البحث جدّياً عن الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى ضعف العالم الإسلامي اقتصادياً، وتدعونا في الوقت نفسه، إلى الربط بين معالجة الآثار السيئة للعولمة، وبين المبادرة الجدّية لإصلاح هذه الأوضاع إصلاحاً يقوم على أقوى الأسس.

إن المجتمعات الفقيرة المحرومة، تمثّل أحد المجالات الحيوية للعولمة؛ فكلما ضعفت المناعة الاِقتصادية، ضؤل تأثير المناعة الثقافية لدى الشعوب، مما يجعل السقوط والاِنهيار تحت مطارق

ضربات العولمة الثقافية أكثر احتمالاً في ظل هذه الأحوال. ولذلك فإن العمل المخطَّط والمدروس في هذا المجال الحيوي، من خلال القنوات المتخصصة، وبتضافر الجهود في إطار العمل الإسلامي المشترك، هو واجبٌ من الواجبات المهمة التي تقع على كواهلنا جميعا، والتي لا يُعفى منها أحد.

إن من شأن سدّ الفجوة الكبيرة بين الغنى والفقر في العالم الإسلامي، وتحقيق تنمية اقتصادية متوازنة ومتكاملة وشاملة، أن يحدَّ من المجال الذي يعمل فيه نظام العولمة الثقافية، وأَن يقطع الطريق على القوى المهيمنة التي يسعى القائمون عليها إلى إكراه الحكومات والشعوب على الإذعان لها والرضوخ لإرادتها والذوبان في العولمة الثقافية. ومن أجل ذلك لا يصح عقلاً ولا شرعا، أن نظل مكتوفي الأيدي، مقيّدي العقول أيضاً، أمام التقدم المطّرد الذي يعرفه اكتساح العولمة الثقافية للعالم الإسلامي. ونعتقد أن العمل في هذا المجال الواسع، ينبغي أن يكون هو العمل الذي تحشد فيه القوى وتُعبّأ القدرات وتُستحث الهمم.

ثالثا: بين الرفض و القبول

لن تمر العولمة في ترتيباتها الاقتصادية وسيطرتها الثقافية على أرض موطدة، وإنما ستصطدم بفطرة تكوين المجتمع الإنساني من لغات متعددة وأديان متباينة وثقافات متنوعة. وفي هذا الاختلاف قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ **1** وقال في آية أخرى: ﴿ **وَمِنْ آياته خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ**﴾**2**.

[1] هود، آية 118– 119

[2] الروم، آية 23

واستقراء التاريخ الإنساني يدل دلالة قاطعة على أن محاولة إخضاع البشرية لطريق واحد وحضارة واحدة أمر مستحيل في حدّ ذاته؛ لأن تلك المحاولة ستفجر المجتمعات الإنسانية من الداخل، ويبدأ الصراع ثم الحرب في ظل القانون الإلهي: ﴿ **وَتِلْكَ الأيامُ نداولها بَيْنَ النَّاسِ**﴾[1].

وعلى الرغم من أن العولمة ظهرت منذ عهد قريب، فإن طلائع المعارضة لها بدأت تظهر في أنحاء العالم، وإن لم تكن اليوم قويةً كاسحةً؛ لأن القضية لا تزال في بدايتها.

إن طغيان الإعلام والثقافة الأمريكيتين في القنوات الفضائية دفع وزير العدل الفرنسي (جاك كوبون) للقول: "إن الإنترنت بالوضع الحالي شكل جديد من أشكال الاستعمار، وإذا لم نتحرك فأسلوب حياتنا في خطر، وهناك إجماع فرنسي على اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة لحماية اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية من التأثير الأمريكي"[2].

بل إن الرئيس الفرنسي (جاك شيراك) عارض قيام مطعم "ماكدونالدز" الذي يقدم الوجبات الأمريكية، مسوغًا ذلك أن يبقى برج أيفل منفردًا بنمط العيش الفرنسي[3].

كما شن وزير الثقافة الفرنسي هجومًا قويًا على (أمريكا) في اجتماع اليونسكو ب(المكسيك)، وقال: "إني أستغرب أن تكون الدول التي علّمت الشعوب قدرًا كبيرًا من الحرية، ودعت إلى الثورة على الطغيان، هي التي تحاول أن تفرض ثقافة شمولية وحيدة على العالم أجمع.

ثم أردف: إن هذا شكل من أشكال الإمبريالية المالية والفكرية، لا يحتل الأراضي، ولكن يصادر الضمائر ومناهج التفكير واختلاف أنماط العيش"[4]. وتبعا لهذه السياسة قررت فرنسا أن تكون نسبة الأفلام الفرنسية المعروضة باللغة الفرنسية من التلفزيون 60%".[5]

---

[1] الروم، آية 23

[2] المستقبل العربي، مستقبل العولمة بين منظورين، ص21

[3] د. عمر الحاجي، العولمة أمام عالمية الشريعة الإسلامية، ص51

[4] المرجع نفسه، ص50.

[5] د. محمد عابد الجابري، العولمة والهوية، ص46

وفي المقاطعات الكندية بلغت الهيمنة الأمريكية في مجال تدفق البرامج الإعلامية والتلفاز إلى حد دعا جمعا من الخبراء إلى التنبيه إلى أن الأطفال الكنديين، أصبحوا لا يدركون أنهم كنديون لكثرة ما يشاهدون من برامج أمريكية.[1]

كما أن (النرويج) عارضت اتفاقية "ماستريخت"؛ لأنها ترفض الاندماج بالهوية الأوربية، وتحفظت (سنغافورة) على شبكة الإنترنت خشية على القيم الكونفوشيوسية.[2]

ويقول (جون جراي) في كتابه: الفجر الكاذب -أوهام الرأسمالية العالمية-: "إن الظروف الحالية في العالم تنذر بكارثة محققة، لأن فرض السوق الحرة الأنجلوسكسونية على العالم يمكن أن يؤدي إلى انهيار شبيه بانهيار الشيوعية العالمية، وأن الاتجاه نحو فرض الأسواق الحرة سيفجر الحروب ويعمق الصراعات العرقية ويفقر الملايين. وقد تحول بالفعل الملايين من الفلاحين الصينيين إلى لاجئين. كما سيؤدي إلى استبعاد عشرات الملايين من العمل والمشاركة في المجتمع حتى في الدول المتقدمة. وقد تفاقمت الأوضاع في بعض الدول الشيوعية السابقة لتصل إلى الفوضى العامة وشيوع الجريمة المنظمة، كما أدت إلى تزايد تدمير البيئة"[3].

وفي (سياتل) حيث عُقد المؤتمر الوزاري الثالث لمنظمة التجارة العالمية، ثار المؤتمرون ضد انفراد (أمريكا) بزعامة العالم، حيث أصرت الدول النامية ودول الاتحاد الأوربي و(اليابان) و(كوريا الجنوبية) على رفض الخضوع لقاعدة الرضا الأمريكي باعتبارها القاعدة الحاكمة — من الناحية الفعلية – لصدور القرارات في نطاق منظمة التجارة العالمية[4]. والمظاهرات التي جرت في أثناء المؤتمر والتي هزت العالم، كان من بين شعاراتها:

1- العالم لن يتحول إلى سلعة يتداولها الأقوياء.

2 – الناس والشعوب قبل الأرباح.

---

[1] المستقبل العربي، مستقبل العولمة بين منظورين، ص21

[2] د. محمد عابد الجابري، العولمة والهوية، ص46

[3] المستقبل العربي، العولمة بين القبول والرفض ، ص106

[4] المرجع نفسه، ص90

3 – لا نريد تجارة حرة بل نريد تجارة عادلة1.

وجُل المفكرين المختصين في مجالات الاقتصاد والاجتماع يعارضون بشدة طغيان العولمة، وقد لخصت الباحثة (ثناء عبد الله) وجوه هذه المعارضة بالنقاط الآتية:

1– اعتبار ما تملكه منظمة التجارة العالمية من سلطة تفوق سلطة الدولة متناقضًا مع متطلبات السيادة الوطنية. وهو ما يؤثر في قدرة الدول على سن التشريعات والقوانين والقواعد التي تلاءم خططها وتوجيهاتها.

2– اتهام الشركات المتعددة الجنسيات باستغلال العمالة في الدول النامية عن طريق تشغيلهم بأجور زهيدة.

3– معارضة فتح الأسواق الأمريكية لما يمكن أن يترتب عليه من دخول سلع دون المواصفات البيئية والصحية السليمة.

4– معارضة تشغيل الأطفال.

5– اتهمت الجماعات الداعية للحفاظ على البيئة منظمة التجارة العالمية بأنها ستدمر البيئة2.

وهنالك حقيقة لا بد من ذكرها وهي أن الرأسمالية التي تعتمد عليها العولمة ليست منهجًا واحدًا في كل بلد، فالرأسمالية الأمريكية والبريطانية لا ترى أي دور للدولة، بينما الرأسمالية اليابانية والآسيوية تلعب السياسة الصناعية وتوجهات الدولة دوراً كبيراً فيها، أما الرأسمالية الفرنسية فتخطيط الدولة يضع مؤشرات للقطاع الخاص، بل تدخل بنفسها منتجاً.

أما رأسمالية الدول الاشتراكية السابقة، فما زالت في طور التحول. وأما الاشتراكية الديمقراطية فقد تجمع قواها وتأتي بأفكار جديدة لمحاربة الرأسمالية أو لتقليل شرورها أو مساوئها3. و لا شك في أن السبب في ذلك أن هذه الدكتاتورية الدولية تتناقض ومصالح

---

[1] جريدة الحياة، منتدى دافوس والعولمة وعالم ما بعد سياتل

[2] المستقبل العربي، قضايا العولمة بين القبول والرفض، ص101

[3] مجلة العلوم الاجتماعية، العولمة : المفهوم، المظاهر، المسببات، ص72

الأغلبية العظمى من دول العالم، بما في ذلك الدول الكبيرة والمتوسطة، وهو ما يفرض صياغة الإجراءات المضادة للخروج من هذه الدكتاتورية[1].

ومجمل القول، فإن مقاومة العولمة بالصيغة الأمريكية الرأسمالية الصهيونية، ستقاومها البشرية شيئاً فشيئاً في ضوء قانون السيرورة الكونية: قانون التحدي والاستجابة. ف(روسيا) ولغتها ودينها وعنجهيتها القيصرية وذكرياتها السوفيتية وقدراتها التدميرية، و(الصين) وأعماقها الكونفوشيوسية، و(الهند) وخلفياتها البوذية، و(اليابان) ومصالحها الاقتصادية الهائلة وذكرياتها مع (هيروشيما) و(ناجازاكي) و(ألمانيا) وفلسفتها العرقية التي ما زالت كامنة في اللاشعور، كل هذه المقدمات ستحول دون وصول العولمة إلى أهدافها النهائية. وهكذا شعوب العالم التي تنتمي إلى تواريخ وحضارات لا يمكن أن تتحول إلى أموات بين يدي غاسل العولمة الأمريكية الصهيونية. فإذا كان هذا وضع العالم وشعوبه، فيا ترى.. ما هو موقفنا نحن في العالم الإسلامي حيال العولمة؟.

1- هل نرفض العولمة؟

العولمة ليست فلسفة محدودة أو ثقافة ضيقة أو مذهباً اقتصادياً محصوراً، أو قناة تلفازية ذات اتجاه واحد. العولمة – من خلال ما شرحنا – ظاهرة عالمية كونية شاملة، تغمر كرتنا الأرضية، وهي أكبر حقيقة واقعية في عصرنا الراهن في ظل ثورة أحالت الكرة الأرضية إلى كرة من المعلومات تدور في الاتجاهات كلها[2]. إن العولمة غزت الدنيا كلها، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والتعليم والثقافة والإعلام والآلات العسكرية. وهنالك ما يزيد على خمسمائة قمر صناعي تدور حول الأرض مرسلة إشارات لاسلكية تكرس العولمة، فبوساطة الصور المتحركة على شاشات أكثر من مليار جهاز تلفزيوني، تتشابه الصور وتتوحد

[1] منير شفيق، النظام العالمي الجديد ، ص16

[2] المستقبل العربي، إعلام العولمة، ص89،

الأفكار والأحلام والأماني والأفعال، بحيث قيل عن هذا الإعلام بأنه إعلام بلا وطن في فضاء بلا حدود.[1]

إذن؛ فلا يمكن أن يدَّعي عاقل أننا نستطيع أن نضع الأمة الإسلامية في علبة ونغلق عليها الباب[2]. و حتى إذا استطعنا فإن هذا ليس في صالحنا، ولا صالح أجيالنا القادمة، ولا في صالح بناء حضارتنا الإسلامية الجديدة، ولا في صالح البشرية التائهة التي تنتظر منقذاً يقدم إليها القيم الفاضلة، والأخلاق النبيلة، والأخوة الإنسانية الحقيقية، التي تربط بين البشر جميعا.

ولقد صدق أحد الباحثين من المسلمين عندما قال: "والخطر لا يكمن في العولمة ذاتها بقدر ما يكمن في سلبية المتلقي، وفي التوظيف الأيديولوجي للعولمة، ونجاح العولمة في الهيمنة والاختراق والتأثير لا يتعلق بإمكانيات وقدرات الدول المتقدمة الفاعلة المصدرة للعولمة بقدر ما يتعلق بقوة وضعف الدول الأخرى المتلقية"[3].

نعم.. فالأمم الضعيفة في مواجهة العولمة، هي التي تخسر كل شيء. وأما الأمم القوية التي تواجه العولمة وتندمج بها وتتفاعل معها، فهي التي تربح معركة المنافسة الحضارية مع العولمة.

إن التعامل مع دنيا العولمة لا يعني أن العولمة قدر مفروض يكسب الرهان دائماً، ولا يعني أنه استسلام ذليل، وإنما التعامل القوي يعني التعايش معها، وتوظيف بُعدها التكنولوجي والحضاري والاستفادة منه لمواجهة الهيمنة باسم العولمة.

ولا بد لنا أن نقرر هنا أنه ليست هنالك حضارة أو ثقافة أو قيم أو دين على وجه الأرض ستتأثر بالعولمة، كما سيتأثر بها الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي. وإن جاء باحث ودرس العولمة بأبعادها كلها دراسة متفحصة وادَّعى بأن تدمير

[1] المرجع نفسه، ص75

[2] سيار الجميل، العولمة و المستقبل: استراتيجية تفكير، ص11

[3] البيان، العولمة بين منظورين، ص21

المسلمين جميعا هو المقصود الأهم والشاغل الأكبر للعولمة الأمريكية الرأسمالية الصهيونية، ما بالغ في رأي الكثيرين في ذلك[1].

يتحدث المفكر الفرنسي المسلم (رجاء جارودي) عن هذه العولمة الأمريكية الصهيونية فيقول: "هذه الوحدة التي أسسها الحكام الأمريكان، واللوبي الصهيوني "الأيباك" AIPAC، وساسة دولة إسرائيل، تقوم اليوم – أكثر من أي وقت مضى – على وحدة الهدف الذي هو محاربة الإسلام وآسيا اللذين يعدان أهم عقبتين في وجه الهيمنة العالمية الأمريكية والصهيونية"[2].

ويقول باحث آخر: "ومن المؤكد أن المستهدف بهذا الغزو الثقافي هم المسلمون. وذلك لعاملين:

أ– ما تملكه بلادهم من مواد أولية هائلة يأتي على رأسها النفط والغاز وثروات طبيعية أخرى.

ب – ما ثبت لهم، عبر مراكزهم وبحوثهم وجامعاتهم ومستشرقيهم، أن هذه الأمة مستعصية على الهزيمة، إذا حافظت على هويتها الإسلامية، ومن ثم فالطريق الوحيد لإخضاعها يتمثل في القضاء على تفرد شخصيتها وإلغاء دينها الذي يبعث فيها الثورة والرفض لكل أشكال الاحتلال والسيطرة[3].

ثمة عاملان آخران:

ج – الحفاظ على أمن الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي، وهو من أهم أهداف العولمة في بلاد العرب والمسلمين.

[1] سيار الجميل، العولمة و المستقبل: إستراتيجية تفكير، ص22

[2] المرجع نفسه، ص214

[3] البيان، العولمة بين منظورين، ص126–127، وأيضاً: البيان، العولمة في الإعلام، ص114

د – الحضارة الإسلامية بعقيدتها وشريعتها ونظام أخلاقها وإنجازاتها التاريخية هي النقيض الوحيد الشامل لفلسفة العولمة ودينها وأنظمتها وقيمها الهابطة في هذه الدنيا التي نعيش فيها.

2- في مواجهة العولمة الثقافية :

إذا كان العالم الإسلامي يوجد تحت تأثير ظاهرة العولمة الثقافية، بالنظر إلى أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية والعلمية والإعلامية التي هي دون ما نطمح إليه، فكيف يتسنى له أن يواجه مخاطر هذه العولمة ويقاوم تأثيراتها ويتغلب على ضغوطها؟.

إن الواقع الذي تعيشه بلدان العالم الإسلامي يوفّر الفرص المواتية أمام تغلغل التأثيرات السلبية للعولمة الثقافية، لأن مقوّمات المناعة ضد سلبيات العولمة، ليست بالدرجة الكافية التي تقي الجسمَ الإسلاميَّ من الآفات المهلكة التي تتسبَّب فيها هذه الظاهرة العالمية المكتسحة للمواقع والمحطّمة للحواجز.

إن المقوّمات الثقافية والقيم الحضارية التي تشكّل رصيدنا التاريخي، لن تُغني ولن تنفع بالقدر المطلوب والمؤثر والفاعل في مواجهة العولمة الثقافية، مادامت أوضاع العالم الإسلامي على ما هي عليه، في المستوى الذي لا يستجيب لطموح الأمة. ولا يحسُن بنا أن نستنكف من ذكر هذه الحقيقة، لأن في إخفائها والتستّر عليها، من الخطر على حاضر العالم الإسلامي ومستقبله، ما يزيد من تفاقم الأزمة المركبة التي تعيشها معظم البلدان الإسلامية على المستويات السياسية والاِقتصادية والاِجتماعية والثقافية والعلمية.

إن الشعوب الضعيفة اقتصادياً والمتخلفة تنمويّاً، لا تملك أن تقاوم الضغوط الثقافية أو تصمد أمام الإغراءات القوية لتحافظ على نصاعة هوياتها وطهارة خصوصياتها. ولذلك كان خط الدفاع الأول على جبهة مقاومة آثار العولمة الثقافية، هو النهوض بالمجتمعات الإسلامية من النواحي كافة، انطلاقاً من الدعم القوي للتنمية الاِقتصادية والاِجتماعية، في موازاةٍ مع العمل من أجل تقوية الاِستقرار وترسيخ قواعده على جميع المستويات، وذلك من خلال القيام

بالإصلاحات الضرورية في المجالات ذات الصلة الوثيقة بحياة المواطنين، بحيث ينتقل العالم الإسلامي من مرحلة الضعف والتخلف، إلى مرحلة القوة والتقدم، في إطار القيم الإسلامية وبروح الأخوة والسماحة والتعاون على البر والتقوى طبقاً للتوجيه القرآني الرشيد.

وكما أن ظاهرة العولمة الثقافية تتركّب من منظومة متكاملة من النظم السياسية والاقتصادية والإعلامية والتكنولوجية، فكذلك هي المواجهةُ المطلوبة لآثار هذه العولمة، لابد وأن تكون قائمةً على أسس قوية، ومستندة إلى مبادئ سليمة. ومن هنا تأتي الأهمية القصوى للعمل الإسلامي المشترك، على شتى الأصعدة، وفي جميع القنوات، من أجل تعزيز التضامن الإسلامي حتى يكون القاعدة المتينة للتعاون بين المجموعة الإسلامية في كلّ الميادين، وفي سبيل تطوير التنمية الشاملة في العالم الإسلامي، للرفع من مستوى الحياة بمحاربة الظلم والفقر والجهل والمرض، وبإشاعة الوعي الاِجتماعي والثقافي الراقي، من خلال الاستثمار العلمي للموارد الاِقتصادية والطبيعية والبشرية التي تتوافر لدى الشعوب الإسلامية، والتوظيف المخطط والمدروس للإمكانات والقدرات، والاِستغلال الجيّد للفرص المتاحة وللآفاق المفتوحة أمام العالم الإسلامي لتحقيق نقلة حضارية حقيقية.

في هذه الحالة، يمكن أن نمتلك الشروط الضرورية لتقوية جهاز المناعة الثقافية ولتعزيز قدرة الإنسان المسلم على الصمود في وجه العولمة الثقافية. وبدون امتلاك هذه الشروط، يستحيل أن نحمي الهوية الثقافية الحضارية الإسلامية من مخاطر العولمة الثقافية.

إنَّ تقوية الكيان الإسلامي اقتصادياً وعلمياً وتكنولوجياً وثقافياً وتربوياً، هي الوسيلة الأجدى والأنفع والأكثر تأثيراً للتغلُّب على الآثار السلبية للعولمة الثقافية، وللاستفادة أيضاً، من آثارها الايجابية في الوقت نفسه، من خلال التكيّف المنضبط مع المناخ الثقافي والإعلامي الذي تشكله تيارات العولمة الثقافية، والتعامل الواعي مع مستجداتها ومتغيراتها وتأثيراتها. وبدون هذه الوسيلة، فسوف نضيع في مهبّ رياح العولمة، وتكتسحنا تيّاراتها العاصفة الجارفة.

3- ملامح صورة المستقبل الثقافي :

إن ما تعرفه البشرية اليوم في عالم الاِتصالات والمعلوميات، ليس بثورة كما يُعبَّر عن ذلك في الأدبيات المعاصرة؛ لأن الثورة فوضى وخبط عشواء واندفاعٌ في غير ما اتجاهٍ محدّد، وإنما هو تطوّرٌ شاملٌ عميقٌ وجذريٌّ يقوم على استغلال العلم والتكنولوجيا إلى أبعد الحدود، وعلى الدراسة والتخطيط وتوظيف القدرات العقلية والمهنية والتقنية والجمع بين الخبرات المتعددة المتراكمة في ميادين علمية تطبيقية متنوعة. وهذا العمل المتقن المحكم المدروس، ليس بثورة.

ولقد أحدث هذا التطوّر المهول في عالم الاِتصالات والمعلوميات، تحوّلاتٍ عميقةً في الثقافة والإعلام والاتصال، وفي مجالات النشاط الفكري والذهني الإنساني المتنوعة. وقياساً على الحجم الذي بلغته هذه التحوّلات في الوقت الراهن، وربطاً بينها وبين المتغيّرات الكثيرة التي تعرفها الإنسانية اليوم في ميادين الاِقتصاد والتجارة والصناعة والزراعة والطب والهندسة الوراثية والفضاء، نستطيع أن نبني توقعاتنا لما ستنتهي إليه ظاهرة العولمة الثقافية في المستقبل على المدَيَيْن القريب والمتوسط، على حساباتٍ لا تبعد كثيراً عن الصحة.

إن الأمر المؤكد أن العولمة الثقافية ستبلغ درجةً قصوى من التطوّر يصل بها إلى درجةً من التغلغل والنفوذ غير معهودة. وهذا ما يتطلب من الحكومات والشعوب، الاِستعداد، على جميع المستويات، للتعامل مع الحالة المرتقبة.

ولكن الأمر المؤكد أيضاً، واستناداً إلى الحسابات نفسها، أن ظاهرة العولمة الثقافية، لابد وأن تتراجع أمام مقاومة الشعوب التي تملك رصيداً حضارياً متميّزاً وإرادة لمواجهة السياسة ذات النزعة الاِستبدادية والمدفوعة بإرادة الهيمنة والإصرار على إكراه الشعوب وعلى تبنّي سياسات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية وإعلامية تَتَعارَضُ مع مصالحها، وتُصَادِمُ خصوصياتها الثقافية والحضارية.

ويمكن أن نقول في ضوء تحليلنا هذا، إن العالم الإسلاميّ سيجد نفسه محاصراً بمعركة ثقافية ضارية، لا سبيل إلى التغلّب على آثارها والاِنتصار فيها، إلا بتطوير آليات العمل الثقافي، وبتحديث وسائله، وبمراجعة شاملة وعميقة لأهدافه وغاياته.

وفي هذا المقام، نشير إلى الأداة الفعالة لتحقيق النهضة الثقافية التي يمتلكها العالم الإسلاميّ في الوقت الحاضر، وهي (الإستراتجية الثقافية للعالم الإسلامي)، التي اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي السادس المنعقد ب(داكار) في عام 1991، والتي تشكّل الإطار الملائم والمتكامل للعمل الثقافي العام في البلدان الإسلامية. وهي إستراتيجية وَضَعَ آليات تنفيذها، المؤتمر الإسلاميّ الثاني لوزراء الثقافة الذي عقد في (الرباط) ب(المملكة المغربية) في عام 1998، وهي بذلك جاهزةٌ للتنفيذ على المستويين، الوطني في إطار السياسات الثقافية لكل دولة عضو، والإسلامي في نطاق العمل الإسلامي المشترك ومن منطلق التضامن الإسلامي.

ولا يعني هذا أن المستقبل الثقافي للعالم الإسلامي، في عصر العولمة الثقافية، سيكون مستجيباً لطموح الأمة الإسلامية بمجرد تنفيذ الإستراتيجية الثقافية، ولكن الأمر يتطلب، في المقام الأول، بذل المزيد من الجهود المتضافرة لإحداث التغييرات المطلوبة من حيث التفكير والتخطيط والتنفيذ والمتابعة. ويقتضي ذلك أن يغيّر العالم الإسلامي وسائل العمل الثقافي وأدواته وأهدافه أيضاً، وأن يعمل على تطوير مناهج التربية والتعليم وتجديد الدراسات الإنسانية على وجه العموم، وأن يتجه نحو الأخذ بالأساليب العلمية في العمل الثقافي والإعلامي، حتى تتوافر له الوسائل الحديثة الكفيلة بالنهوض الثقافي العام. وبذلك يستطيع العالم الإسلامي أن يصمد صموداً ثابتاً أمام ظاهرة العولمة الثقافية.

الحل ليس في كلمات تقال أو مقالات تكتب ، و إنما في وعي يتشكل، أساسه تجديد الإشكال بطرح السؤال: من أنا ؟ من نحن؟.

الفصل الثاني

اللغة .. الهوية

و... العولمة

انطلقت الدراسة من فرضية مفادها أنّ العولمة ما هي إلاّ محاولة لتعميم النموذج الحضاري الغربي في حالته الأمريكية على العالم ، لذلك – وكما أسلفنا – تعدّ العولمة والهوية قضية محورية داخل السياق الزمني لإشكالية العلاقة بين الأنا والآخر.

السؤال المطروح : هل نحمل هوية ثقافية تميزنا عن غيرنا ؟

إنّه سؤال الذات والوجود والمصير ، على إثره توضع إشكالية الهوية والعولمة في مسارها الطبيعي ، منهجيا على الأقل ؟

أولا: الهوية و صدمة العولمة

و البدء مع :

1– الثقافة : المصطلح والمدلول :

حيث تتداعى الأسئلة وتتراكم ، ونحن نحاول أن نرصد تعريفا للثقافة ، أو أن نبحث عن معانيها ومضامينها... ، وقد حظيت في العصور الحديثة بتعريفات متعدّدة بقدر اتساع الساحة الّتي تغطيها النشاطات الثقافية لتشمل شتّى نواحي الحياة الاجتماعية أو تبطّنها.

وهكذا من الممكن – إذا حصل التأكيد على هذا الجانب أو ذاك – الخروج بتعريفات مختلفة يتميّز بعضها عن البعض الآخر.

ولا شكّ أنّ اهتمام الباحثين بدراسة الثقافة في مختلف فروع العلوم الاجتماعية وبخاصة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، شكل حافزا قويا نحو البدء في هذه الدراسة بمفهوم واضح محدّد لما يدور حول هذا الاهتمام. ولذلك يجد كل من يتابع هذا التراث الكثير من المحاولات لتقديم تعريف يحدّد من خلاله المقصود بالثقافة. لذلك كان علينا أن نتعرّض لتلك المحاولات ونوضّح كيف أنّ دراسة الثقافة

قد تجاذبتها علوم اجتماعية متباينة ، وتزايدت العناية بها بين علمي الاجتماع والأنثروبولوجيا.

– سؤال المعنى *:

وتتردّد تلك التعريفات بين مفهوم ضيق للثقافة يقصرها بالدرجة الأولى على النشاطات العقلية العليا أو على الإنتاج الذهني العالي المستوى والمعترف به من قبل المختصين، كالتعريف الذي يحدّد الثقافة بكونها : " خصيصة لشخص متعلّم قد نمس بواسطة التعليم ذوقه وحاسته النقدية وإدراكه "1. وبين مفهوم أقل ضيقا يدمج في الثقافة كل النشاطات الذهنية الشعبية والرسمية الحية والموروثة ، وبين مفهوم ثالث أكثر شمولا يحاول أن يربط الثقافة بكل النشاطات الذهنية والجسدية الّتي تخلف لدى جماعة معينة طريقة متميزة في السلوك والحياة ، هذا المفهوم يختزل الثقافة في كونها:" مجموعة القيم المادية والاجتماعية لأيّ شعب سواء كان متمدنا أو متوحشا"2.

لكن هذه التعريفات جميعها تشترك في نقطة واحدة هي تحويلها الثقافة إلى مجموعة من المعارف والاعتقادات والأخلاق والعادات الّتي يكتسبها الفرد جرّاء انتمائه إلى جماعة من الجماعات.

ويمكن إرجاع تلك التعريفات كلّها في الحقيقة إلى (إيدوارد تايلور) الذي نشر عام 1871م أهمّ كتاب في الموضوع ، وقد أصبح فيما بعد المرجع الأساسي للأعمال التالية ، وهو "الثقافة البدائية". وفيه يعرف (تايلور) الثقافة بأنّها : " هذا الكل الذي يتضمن المعرفة والاعتقاد والفنّ والحقوق والأخلاق والعادات وكل قدرات وأعراف أخرى اكتسبها الإنسان بوصفه فردا في المجتمع "3.

لا شكّ في أنّ التعريفات المقدمة مهمة ومفيدة في الآن ذاته ، ذلك أنّها تظهر ما يميز مجتمعا عن مجتمع آخر ، ويفسر سلوكه المتميّز. وبقيت الثقافة حاملة لهذا المفهوم من قبل علماء الثقافة والإناسة حتّى جاء عصر الأنوار ليتطور المفهوم من التمييز في السلوك فقط إلى التمايز

* من الناحية اللغوية لم يكن مصطلح الثقافة متداولا في المعاجم العربية القديمة سواء بمعناه الدارج أو المتداول علميا ، وكل ما ورد بشأن الكلمة لا يتعدّى معاني الحذق والتسوية والتهذيب. انظر : الرازي، مختار الصحاح ، ص 63.

[1] محمد بن عبد الكريم الجزائري، الثقافة ومآسي رجالها ، ص 14

[2] المرجع نفسه ، ص 18

[3] سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، ص 27

بين ما سمّي بالشعوب البدائية والشعوب الحديثة المتحضرة ، وما زال النقاش قائما بين من يريد من علماء الثقافة حفظ حدّ أدنى من الاستمرار بين الثقافة البدائية والثقافة المعاصرة ومن يريد عكس ذلك ، ويؤكد على التمايز الوظيفي بين الثقافتين. ويسعى علماء الإناسة ، بعكس فلاسفة الثقافة أن يطوّروا دراسة الثقافة الحديثة على ضوء تحليل الثقافات القديمة ذاتها[1] ، لكنّهم هم أيضا لا يطرحون إلاّ الأسئلة والمسائل الّتي لم تسمح بطرحها ثقافتهم.

والمسألة ليست قليلة الأهمية ، إذ أنّ الفصل الكامل بين الثقافة البدائية والثقافة الحديثة يجعل من الأخيرة وهي الثقافة الغربية مقياس كل الثقافات الأخرى ، وبالعكس يعني إلغاء التعارض بينهما النظر إلى الاختلاف الثقافي على أنّه تمايز محلّي في طريقة الاستجابات والحلول الّتي تقدمها كل ثقافة لمشاكل واحدة ، ونقترب عندئذ من فكرة الثقافة باعتبارها تجاوز للطبيعة ، وهي الفكرة الّتي أدخلها (صموئيل فون بوندورف) منذ القرن السابع عشر ، وهنا تصبح الثقافة عملية تهذيب أو تثقيف "للطبيعة" أو الفطرة ، أي ما يسميه العرب بالأدب ، وما أطلق عليه كتاب القرن السادس عشر في أوروبا بتدريب العقل ، ووصفه (فولتير) بتكوين الروح ، ثمّ اعتبره (كانت) و(هيجل) و(نيتشه) فيما بعد مظهرا للوعي البشري[2].

" وكان هيلدر الألماني أوّل من استخدم الثقافة بمعنى السمات الّتي تميّز أمّة عن غيرها من الأمم "[3] ، فأصبحت تعني الهوية القومية وارتبطت بها.

بعد عملية التأصيل التاريخي التطوري لمفهوم الثقافة ، ننتقل خطوة أكثر واقعية في تحديدنا للمفهوم. ما زالت الثقافة تستخدم كاسم عام يطلق على ظواهر وسيرورات مختلفة ومتفاوتة ، بل ومتناقضة أحيانا ، وذلك حسب ثقافة المتكلم وطبيعته ، والميدان المستخدمة فيه والهدف ، فقد تستعمل لتمييز ميادين ذهنية ومادية مختلفة ، فيقال ثقافة سياسية وثقافة بدنية ، أو لتمييز أنماط سلوك أو خصوصيات قومية فيقال مثلا ثقافة العرب روحية وثقافة الغرب عقلية. وقد تستعمل لتحديد مكانة اجتماعية فيقال هذا مثقف وذاك أمّي ، أو لوصف جزء من

---

[1] برهان غليون، إغتيال العقل ، ص 83
[2] طاهر لبيب، سوسيولوجيا الثقافة ، ص 6 وما بعدها
[3] برهان غليون، إغتيال العقل ، ص 84

النشاط الثقافي فيقال ثقافة عمالية وثقافة فلاحية، أو لوصف مواقع سياسية فيقال ثقافة تقدمية وثقافة رجعية أو ثقافة اشتراكية وثقافة برجوازية...الخ.

كما يمكن للثقافة أن تستعمل كتعبير عن آليات ووظائف اجتماعية ، وعندئذ نتحدث عن أثر الثقافة في سلوك الفرد أو الجماعة أو في تطور الإنتاج أو المجتمع.

ولهذا تتباين التعريفات المقدمة للثقافة ، وتختلف حسب الأهمية الّتي تعطيها للفعل أو النشاط الثقافي في التأثير على سير النظام الاجتماعي العام ، وحسب اتساع المفهوم الذي تعطيه له أو ضيقه ، فمنهم من يعتبرها بنية فوقية تابعة لبنية تحتية* ، هي الّتي تحدّد لها وظائفها ، وتشكل الماركسية أفضل مثال على ذلك. ومنهم من يعتبرها بنية أساسية تخضع لها جميع البنى الأخرى ، الأنثروبولوجيا الثقافية الّتي تجعل من النظام الثقافي المنفذ إلى فهم نظام المجتمع العام ، وينظر إليه على أنّه بطانة هذا النظام ومكمن أسراره.

ولا شكّ أنّ هناك ارتباطا كبيرا بين توسيع مفهوم الثقافة ودائرة الظواهر الّتي تغطيها وبين تعظيم الدور الذي يناط إليها في حياة المجتمع ، ويظهر الفارق مباشرة في تحديد موضوع الثقافة : هل هو نظام القيم والمعايير الذي ينظم حياة الجماعة ويتحكم بسلوك أفرادها وسلوكها الجماعي واستمراريتها ، أم هو الإنتاج الفكري للهيئة المثقفة من علماء وأدباء وفنانين ، والذي يشكل مرآة ، صادقة أو كاذبة ، لحياة المجتمع بكل ما تعنيه كلمة مرآة من سلبية ؟

الثقافة تعني بالمفهوم الأوّل القاعدة الأساسية الّتي تقوم بضبط المجتمع لبيئته وتاريخه وسيطرته عليهما ، أي في الواقع تعامله سلبا أو إيجابا معهما ، وتصبح بالتالي مصدر المدنية وعلتها. وتعني بالمفهوم الثاني المتعة الّتي يحصل عليها الإنسان من الثقافة واستهلاك الإنتاج الثقافي ، فالنظرة الأولى ترى في الثقافة مجموعة قواعد وترى فيها الثانية جملة منتوجات ومواضيع استهلاك. وتفترض النظرة الأنثروبولوجية أنّ للنسق الثقافي انسجاما داخليا قويا يجعل من الصعب تغيير جزء منه دون إثارة ردّ فعل أو استجابات وتغييرات على صعيد توازن النسق كله ،

---

* أطلق (ماركس) مصطلح " البنية التحتية " على الظروف المادية والاقتصادية والاجتماعية ، في حين أطلق مصطلح " البنية الفوقية " على نمط تفكير المجتمع ، مؤسساته السياسية ، قوانينه ، أخلاقه ، فلسفته ، وعلومه ، لذلك فإنّ البنية التحتية أو الظروف المادية تحمل على كاهلها كل نتائج الفكر في المجتمع ، والبنية الفوقية ليست إلاّ انعكاس للظروف الإنتاجية والمادية للبنية التحتية. ينظر : مجلة العربي ، العدد 456 ، ص 21.

وأنّ هـذا النسـق يكـون إذن نظامـا كليـا متكـاملا لا يمكـن تجزئتـه ، وأنّ أي تغيـير عميـق في توجهـات الجماعـة لا بـدّ أن يلقـى مقاومـة قويـة مـن قبـل النسـق الثقـافي مـا لم يـترجم نفسـه في مصطلحات وقواعد هذا النسق. وهنا تظهر البنية الثقافية كما لو كانت صيغا أو أنماطا أولية ثابتة في اللاشعور الجمعي لكل مجتمع لا يتغير ولا يتبدل على مرّ العصور ، وتعطي للمجتمع هويته أو خصوصيته1.

ومـن الواضـح أنّ الموقـف العـربي السـائد هـو مـزيج مـن النظـريتين ، فهـو يجمـع في الوقـت نفسـه نظـرة الاسـتهتار بالثقافـة والقـيم الثقافيـة كعامـل مـن عوامـل وشـروط التحـول والتغيـير الاجتماعي، ولا يرى من هذا التحول إلاّ جانبه التقني أو السياسي – السلطوي، إلى نظرة ثانية تعتبر الثقافة نظاما كليا ونسقا ثابتا عربيا أو غربيا ، تشتق منه روح التطور أو تستند إليه عوامل النهضة من جهة ، أو تبرز فيه روح التخلف من جهة أخرى.

وأصل ذلك أنّ التخلص من ثقافة الماضي وتحقيق القطيعة معه لا تتمّ إلاّ بالانتقاص من القـيم الثقافيـة الّـتي يمثلهـا ، بينمـا يسـتدعي الالتحـاق بـالغرب والتـأثر بـه تقـدير ثقافتـه وتعظـيم دورها.

وهكـذا يـتردد هـذا الموقـف ، وحسـب الحاجـة ، بـين توليـد التـاريخ كلـه مـن الفكـرة ومـن الثقافة ، وبين رفض الثقافة كقيمة في ذاتها والاستسلام لموقف العدمية الثقافية وينتج قصور هذه التعريفـات والمواقـف عـن خطـأين أساسـيين ، يقـوم الأوّل علـى الخلـط المعتمـد أو التلقـائي بـين الثقافة والوعي أو الفكر والعقل.

مما يجعل من الثقافة بنية ذاتية بعيدة عن الموضوعية ، ومن الصعب إدراكها أو الإمساك بهـا خـارج نطـاق الحـدس أو الإبـداعات الشخصـية. ويقـوم الثـاني علـى الخلـط بـين الثقافـة وبـين الواقعيـة أو الوقـائع الماديـة الجغرافيـة أو المناخيـة أو العرقيـة أو البيئيـة أو التاريخيـة، ممـا يهـدد بجعـل الثقافـة كتلـة جامـدة مـن الصـفات القابعـة في قلـب كـل تجمـع بشـري والمكونـة لكيانـه اللاتـاريخي والأبدي الذي لا يحول ولا يزول.

[1] طاهر لبيب، سوسيولوجيا الثقافة ، ص11

النظرة الأولى تلغي كل استقلال ذاتي وقوامية متميزة للثقافة ، أي كل انسجام وتكامل داخليين ، وكل زمانية خاصة ، وتحولها إلى عدد لا متناه من الرؤى والتيارات والأفكار. والنظرة الثانية تلحق زمانيتها بزمانية الواقع المادي ، وتحرمها من كل ديناميكية خاصة وذاتية لتطورها.

وكلاهما يعني تقليص الثقافة إلى مظهرها الذاتي المحض ، وعدم رؤية هذا المظهر إلاّ من زاوية الاهتمام الإيديولوجي ونظرته الخاصة إلى ماهية الوعي. فالمثقف العقلاني لا يرى الوعي إلاّ كعقل منظم وتنظيمي ، حاذفا كل ما له علاقة بالمصادر الروحية والفنية ومنظومات القيم الموروثة الّتي يعتبرها تشويها للوعي أو مظهرا من مظاهر انحرافه أو انحطاطه أو التعبير المنقوص عنه. والباحث المعادي للعقلانية يركز بالعكس على منابع الإلهام الروحية والأخلاقية والدينية الّتي لا تشكل النظم العقلية إلاّ تجسيدات مؤقتة أو تاريخية لها ، فتكون عنده روح الثقافة أهمّ من منتوجها.

بيد أنّ جميع ما ذكر من تعريفات ماهوية ووظيفية للثقافة لم تجب على السؤال الذي يطرحه علم اجتماع الثقافة : ما هي الشروط الّتي تؤدي في نطاق جماعة ما إلى نظام قيم معين ينظم ممارسة هذه الجماعة ، ويخلق عندها حقل دلالات خاصة روحية وعقلية تصوغ من خلالها الأسئلة والإجابات الّتي تسمح لها بالتكيف مع البيئة المحيطة بها وإدارة أو تسيير تاريخها ؟ ولماذا تنشأ ثقافات مختلفة هنا وهناك ومعايير متميّزة للوعي والسلوك ؟

لا شكّ أنّ الثقافة لا تفهم إلاّ باعتبارها مظهرا للوعي الذي يستوعب الإنسان من خلاله ، فردا وجماعة ويفهمه ويجعله شفافا أي قابلا للتمثل في الذهن ، ولا تفهم أيضا إلاّ باعتبارها استجابة لواقع موضوعي ، قائم خارج الذهن الذي يفرض نفسه بصرف النظر عن الفكرة أو الصورة الّتي يصنعها الوعي ، بيد أنّ هذا الوعي وذلك الواقع لا يخلقان ثقافة إلاّ عبر المجتمع والجماعة ، باعتبارها صيرورة تاريخية أي كيانا متبدلا ومتغيرا ومستقرا في الوقت نفسه. فمن خلال هذا الاجتماع يصبح الوعي الذاتي وعيا جماعيا أي مستقلا عن وعي كل فرد لوحده ويصبح الواقع الموضوعي والخارجي واقعا تاريخيا ، واقعا ذاتيا أو للذات ، خاص بخبرة الجماعة وبما تصنعه منه.

فمن العلاقة الاجتماعية والتاريخية بين الوعي والوجود ، وبين الذات والموضوع ، يولد واقع جديد ، أو بنية موضوعية خاصة تؤثر في الوقت ذاته في طريقة عمل الوعي كذات فاعلة، أي كفعل إدراك وفي طبيعة الواقع الخارجي ، وهي ما نسمّيه بالثقافة.

ولا يلغي وجود هذه البنية الموضوعية ذاتية الوعي الفاعل ولا خارجية الواقع الموضوعي ، بل تدخل في صراع دائما معهما. فهي شروط الانتقال من الفرضية إلى الجماعة، ومن السكونية إلى الحركة ، أي شرط إنتاج المجتمع كصيرورة مستقلة ومتميزة عن وجود الأفراد كأفراد ووجود الطبيعة كمعطى خارجي.

وينتج عن ذلك أنّ اندماج الفردي في ثقافة ما ليس أمرا معطى منذ البدء ، بل هو ثمرة لعملية صراع بين الوعي الذي يحاول أن ينفذ إلى الواقع مباشرة وخارج أطر الثقافة وما تفرضه من شروط اجتماعية ، وبين الجماعة الّتي تحاول أن تفرض عليه مجموعة القواعد الّتي تعتبرها شرطا لوجودها. وفي هذا الصراع يكمن في الواقع المصدر الأساسي لنو الثقافة ذاتها وتبدلها ونعني به الإبداع العقلي.

كما ينتج أيضا أنّ الثقافة كوعي اجتماعي أو بالأحرى جماعي موضوعي منظم يمكن أن تنفصل عن الواقع أو أن تفقد القدرة على التعامل معه ، خاصة عندما تأتي التغيرات الأساسية فيه بدافع خارجي. وعندئذ يتحرّر الوعي من شروطه الاجتماعية ويكون لتحرّره هذا الدور الأوّل في إعادة بلورة وتنظيم الساحة الثقافية وتجديدها. وهذا يعني أنّ الثقافة ليست كتلة جامدة ، ولا ماهية ثابتة ، ولا عقلية متحجرة ، وإنّما علاقة توتر مستمرة ، وبقدر ما تنتج ما في إعطاء الحلول الإيجابية لهذا التوتر دون التضحية بطرفيه ، أي دون إلغائه، تؤسس للمجتمع كمجتمع مدني ، وتضفي عليه الاستقرار والتقدم.

وتموت الثقافة أو تذبل متى ما تعمّق الانفصام بين الوعي والواقع ، وما زالت إمكانية تجاوز التوتر بينهما أو تحويلها إذ أنّ معنى ذلك أنّ المجتمع قد بدأ يفقد القدرة على التحكم بنفسه وبمحيطه1.

[1] ينظر : د. أحمد أبو زيد، دراسات في المجتمع و الثقافة والشخصية ، ص 63 وما بعدها

لكن؛ من أين تأتي قدرة المجتمع على العثور على حلول إيجابية ومبدعة لهذا التوتر الخلاّق ؟ هذه في نظر – برهان غليون – مسألة تاريخية ومعقدة تلعب فيه الظروف الخاصة والإمكانيات والخبرة والحظوظ التاريخية والواقع... دورا كبيرا، وتاريخ الجماعات البشرية ليس مكتوبا منذ البدء على كتاب محفوظ ولا كان أمرا محتوما1.

لذلك لا يمكن لنشوء ثقافة أن يكون اعتباطا أو إراديا ، وليس بالإمكان توليد الثقافة أو إبداع نمط ثقافي جديد عندما يرغب الفرد في ذلك أو تقرّره جماعة من الجماعات. فنشوء ثقافة حيّة خاضع لعوامل متعدّدة ومتبدلة تاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية أيضا ، قد تتوفر لمجتمع ولا تتوفر لآخر ، أو قد تتوفر له في حقبة معينة ويفتقر إليها في حقبة أخرى. لذلك لم تنشأ عبر التاريخ إلاّ ثقافات كبرى محدودة، وقليل منها أتيح له أن يطوّر منظومتها الروحية والعقلية والأخلاقية والعلمية ويصل بها إلى مصاف الحضارة العالمية2.

فمن خلال إنتاجهم لوجودهم كوجود اجتماعي أي مدني ، تخلق الجماعات أنماطا متميزة من الوعي والسلوك ومنظومات قيم وقواعد اجتماعية وعقلية مرتبطة بالحقبة وبالبيئة وبالظروف العامة لتشكلها ، وتصبح هذه الأنماط بذاتها بنية مستقلة داخل البناء الاجتماعي تؤثر فيه وتتأثر به. وقد تصبح هذه البنية الّتي كانت عاملا من عوامل عدم التكيف في حقبة أخرى. وتسمى هذه البنية بالنسق الثقافي ، وتسمّى أشكال التفكير والوعي الخاصة بها بالأنماط الثقافية ، والمؤسسات الّتي تحقق وظائفها العلمية والدينية والأخلاقية والفنية بالمنظومات الثقافية ، ونسمي التمفصل الخاص الذي تأخذه في حقبة أو عهد معين هذه الأنماط والمنظومات بالنظام الثقافي.

وهكذا يمكن القول ، وبكلمة ، الثقافة هي جملة الأنماط (القيم والقواعد والأعراف والتقاليد) الّتي تبدع وتنظم لدى جماعة ما حقل الدلالات (العقلية والروحية والحسية) وتحدّد

[1] برهان غليون، اغتيال العقل ، ص 88 وما بعدها
[2] المرجع نفسه ، ص88

بالتالي لدى هذه الجماعة أسلوب استخدامها لإمكانيتها (البشرية والمادية) ونوعية استهلاكها لبيئتها[1].

أمّا الثقافة العربية الإسلامية والّتي هي تراث أمم الإسلام والعروبة جميعا ، فإنّها لا تخرج عن هذا الإطار. خاصيتها أنّها تكوّنت أساسا من الإسلام نفسه مضافا إليه العناصر الثقافية التقليدية لكل بلد إسلامي[2].

هذه هي الثقافة ، وتلك عناصرها. فماذا عن الهوية ؟

2- الهوية : الحقيقة والوهم

إذا كان تعريف الثقافة أمر صعب ، فإنّ الحال مع الهوية أصعب ، ذلك أنّ المصطلح يظهر في كثير من الكتابات وكأنّه بديهية لا تحتاج إلى تعريف ، أو أنّ المفهوم يفصح عن نفسه ، وكثرة التداول قد توحي ببساطة معناه ومضمونه ، خاصة وأنّه يستخدم بطريقة أو بأخرى بين كل فئات المجتمع باعتباره تعبيرا عن روح الشعب ، وبالتالي شعور لا يحتاج إلى شرح كثير قد يوصله إلى سفسطة غير مرغوبة بسبب المضمون المباشر للهوية.

الحقيقة أنّ هذا التبسيط نتج عنه موقف غامض ومتذبذب ، مما جعل المفهوم في حقيقة أمره شديد الالتباس. من هنا نقول إنّ رسم حدود الهوية أمر صعب على صعيد الواقع ، وبالأخص في زمن العولمة حيث تلغى الحدود ويغدو العالم واحدا.

يرى الكثيرون أنّ الهوية مصطلح إيديولوجي أكثر منه ابستمولوجي ، دليلهم في ذلك أنّ الهوية يمكن التعبير عنها أو تجسيدها من خلال سمات كثيرة ومختلفة ، مثل الدين واللغة أو الدولة الوطنية أو القومية ، كل هذه الخصائص متغيّرة حسب طريقة الاستخدام والتوظيف. لذلك يرى هذا الفريق أنّ المجتمع الواحد يمكن له أن يبدل هويته بسبب المراحل التاريخية والظروف الحاكمة. هذا المعنى يؤكده (مصطفى وهبه) بقوله : "يرى بعض الباحثين أنّ الهوية أصلا مصطلح سياسي

[1] عن الثقافة : تعاريفها ، مضامينها ، وما يتعلّق بها ، ينظر : - أحمد بن نعمان، هذي هي الثقافة.- محمد السويدي، علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته

[2] د.حسين مؤنس، الحضارة ، ص 400

ولد ضمن عملية صراع سياسية"1. أمّا (جان فرانسوا بايار) فيعتبر الهوية في أقصى أحوالها أي ما يسمى "بالهوية الأصلية" لا تخرج من الإطار السياسي. يقول بعد أن يصف النزاعات الّتي عرفها العالم أخيرا : " وقد انعقدت تلك النزاعات حول مفهوم الهوية ، وهي تستمد قوّتها المهلكة من افتراض يزعم أنّ الهوية الثقافية تقابلها بالضرورة هوية سياسية لا تخلو هي أيضا في الواقع من طبعها الوهمي. والحق أنّ كلا من هاتين (الهويتين) ، تكون في أحسن الأحوال بناء ثقافيا أو سياسيا أو إيديولوجيا ، أي بناء تاريخيا أصلا. فلا توجد هوية طبيعية تفرضها الأوضاع2.

يظهر من خلال ما سبق أنّ هناك ميلا نحو وجود هوية ثابتة ومحدّدة على اعتبار أنّ مفهوم الهوية يتماهى مع الإيديولوجية بمعناها السلبي ، أي تزييف للوعي... الهوية إذن غير موجودة ولكن تصنع اجتماعيا مما ينزع عنها الطابع الميتافيزيقي الذي يضفي عليها صفات متعالية عن الوجود الملموس.

لكن ثمة رأي آخر يرى أنّ مفهوم الهوية لازمه مضمون فلسفي وديني يؤكد على المقدس والدائم والمتسق ، أي غير المتناقض في معنى الهوية ، وفي المعاجم الحديثة تأخذ الهوية معنى الذات ، وذات الشيء حقيقته وخاصته3، بهذا المفهوم تصبح الهوية جملة خصائص الذات الحضارية للأمّة ومكوّناتها. أمّا في قاموس المفاهيم والألفاظ الفلسفية الحديثة نجد تحت كلمة هوية : ما يعرّف الشيء في ذاته دون اللجوء إلى عناصر خارجية لتعريفه ، وتستعمل أيضا للدلالة على الجوهر. أمّا في المنطق فإنّ هذه اللفظة تشير إلى معنيين أحدهما : التساوي أو التشابه المطلق بين كمين أو كيفين ، وهنا تعني التوافق ، أمّا الآخر فأن يكون الشيء ثابتا لا يتغيّر بما يعتريه أو ما يعتري ما يحيط به ، وهنا تعني الثبوت4.

ونحن إذ نميل إلى الرأي الأخير ، نرى أنّ الهوية ما هي إلاّ جملة العناصر الثابتة في ثقافتنا العربية الإسلامية ، وعلى رأسها الدين واللغة.

[1] الهوية : التواصل واللغة ، نقلا عن عالم الفكر ، ص 103
[2] جون فرانسوا بايار، أوهام الهوية ، ص 07
[3] المعجم الوجيز ، ص 142 – 654
[4] يوسف صديق، المفاهيم والألفاظ في الفلسفة الحديثة ، ص 115

تلك هي الهوية بما اشتملت من عناصر ثابتة ، تشكل الجوهر الذي يصاحب الأمّة عبر التاريخ.

تاريخ يقف اليوم على عتبة العولمة.. متسائلا:

3- الهوية : انبعاث أم انصهار..؟

يذهب أستاذ العلاقات الدولية في جامعة كولومبيا (دافيد روثكويف) بقوله : "صحيح أنّ العولمة لها جذور اقتصادية ، وعواقب سياسية إلاّ أنّها سلّطت الضوء على قوة الثقافة في هذه البيئة الكونية ، القوة الّتي تجمعهم وتفرقهم في وقت أصبحت فيه التوترات بين التكامل والانفصال تتأجّج في كل قضية تربط بالعلاقات الدولية. والواقع أنّ أثر العولمة في الثقافة ، وأثر الثقافة في العولمة يستحقّان المناقشة[1].

فتحت العولمة قضايا الهوية على نطاق عالمي واسع ، وأخذ الحديث يقترن بصورة متلازمة تقريبا بين العولمة والهوية...

ولعلّه من المرات القليلة خلال القرن العشرين الذي يفتح فيه أوسع حديث واهتمام في العالم حول قضايا الهوية. فقد كان الحديث قبل العولمة عن الهوية يقابل بالشك وعدم الاكتراث ، ويصور بطريقة من الفهم ترتد على صاحبها بالنقد ، بعكس ما يجري اليوم من اهتمام يتصف بجدية كبيرة[2] ، على خلفيات تتصل بالعولمة.

[1] مجلة الثقافة العالمية ، ص 26
[2] زكي الميلاد، المسألة الحضارية ، ص 29

أ- مجتمع المخاطرة : تبادلية الخصوصية والكونية.

لعلّ من أبرز الإشكالات الّتي تطرحها اللحظة التاريخية الراهنة قضية الهوية والعولمة ، وحدود العلاقة بينهما.

جدلية مثلا...؟

تذهب بعض القراءات إلى افتراض العكس ، وترى أنّ الهوية بمرونتها* قد تتعايش أو تقتبس من ثقافات أخرى ، بل قد تساعدها عوامل التقارب وسقوط الحواجز على تفاعل إيجابي وخلاق مع العولمة. فالتطورات الّتي تحدث عالميا لا تعني سيطرة ثقافة ما وهيمنتها ، بل بالعكس ، إنّها تساهم في حركة ثقافية أوسع وأكثر تعقيدا1.

بكلمة ، العولمة لا تهدّد الهوية بالفناء أو التذويب ، بل تعيد تشكيلها ، أو حتّى تطويرها لتتكيّف مع الواقع والحاضر.

مثل هذه الآراء على قوّتها الإقناعية وطرحها العملي ، تقلل من أهمية الصورة الكاسحة الموضوعة للعولمة في تفاعلها مع الهوية الثقافية ، وكأنّنا نجد فيها نفيا لدور العولمة في تغيير الثقافات ، وإعادة تكوينها ضمن نموذج مفترض للعولمة ، أو أنّها – أي الآراء السالفة – تحاول رسم النموذج المثالي المرغوب الذي يجب أن تكوّنه العلاقة.. والّتي تجعل العولمة أقل كارثة ، وأن تخرج البشرية بأحسن النتائج وأكثرها إيجابية من عملية العولمة.

إنّه مجتمع المخاطرة! ، والذي هو في نظر جيدنز (Giddens) يتضمن " الحياة بسلوك حسابي تجاه الاحتمالات المفتوحة للفعل الإيجابي والسلبي الذي يواجهنا عالميا وكأفراد بطريقة مستمرة في وجودنا الاجتماعي المعاصر "2.

إذا كان البعض ينقل ويردّد مقولات سائدة في "سوسيولوجيا التحديث" حول إيجابيات الاحتكاك والانتشار الثقافي الناتج عن نقل ثقافة المجتمع الحديث إلى المجتمع التقليدي، مع نقل

---

* تأتي المرونة في الهوية من كون الأخيرة – في نظر أصحاب الرأي المذكور – تاريخية ونسبية أي غير ثابتة ، فهي مشروع مفتوح على التغيير والتطوير

[1] عالم الفكر ، ص 105

[2] المرجع نفسه ، ص 106

التكنولوجيا إلى داخل البنى التقليدية من شأنه أن ينقل المجتمع الأخير إلى مرحلة الحداثة ، ومن ثمّ يستطيع تخطي الفارق الزمني الذي يفصل بين المرحلة الّتي يعيش فيها المجتمع التقليدي ، وبين المرحلة الّتي وصل إليها المجتمع الحديث (الرأسمالي) ، فإنّنا نقول يخطئ من يتصوّر أنّ التبادل الثقافي أمر وارد بين ثقافتين غير متكافئتين ، بل يخطئ أكثر من يرى أنّ الاحتكاك الثقافي والانتشار يساعد الدول الفقيرة في تخطي مرحلة التخلف ، ففي كل حالات التبادل الثقافي غير المتكافئ (الاختراق أو الغزو) ، فإنّ الثقافات الأدنى تفقد تدريجيا مقوّمات استمرارها ، وبذلك تتفكك وتنهار. يقول (فريمون) في كتابه "تلاقي الثقافات والعلاقات الدولية" : " إنّ الثقافات الأضعف لا تجد أمامها إلاّ التفكك والانهيار مما يشكل إشكالية على صعيد الهوية ".1. أمّا (صامويل هنتينجتون) فقد انتقد من يدعون حسب كلامه إلى ثقافة عالمية واحدة مرجعيتها الغرب2.

المشكلة في أساسها ، أنّ الغرب صانع العولمة لم يحاول فقط الانفراد بالحضارة ، وإنّما قاوم كل انبعاث حضاري خارج فضائه ، وقام بأكبر تدمير للحضارات في العالم. وإلى اليوم لم يغيّر من أنماطه السلوكية تجاه الأمم والحضارات ، فأكثر المقولات والأطروحات الّتي يبشر بها ويروّج لها في العالم تكشف بوضوح ما سبق ذكره ، بدءا من "نهاية التاريخ" إلى مقولة "صدام الحضارات" ، وانتهاء بمقولة "البحث عن عدوّ جديد"3.

إنّ ما تظهره الأمم والحضارات من خوف وحذر وقلق تجاه أحدث مقولات الغرب وهي العولمة له ما يبرّره.

ولا شكّ أنّ الخطر الأكبر في عملية العولمة أنّها تفرض من الخارج ؛ فهي ليست نتاجا لتفاعلات بين الحضارات..بل هي مرحلة معاصرة من مراحل الرأسمالية أو هي —كما يصفها منظرو ما بعد الحداثة– مرحلة متأخرة من مراحل الحداثة ، في ظلّ ليبرالية جديدة أشار إليها البعض بأنّها تمثل نهاية التاريخ ، أو هي كما يراها البعض هجمة معاصرة للرأسمالية تستهدف

[1] المرجع السابق ، ص 137
[2] زكي الميلاد، المسألة الحضارية ، ص 30
[3] ينظر بهذا الصدد : روجيه غارودي، أمريكا طليعة الانحطاط

تنميط العالم بالشكل الذي يخدم مصالح القوى الرأسمالية العالمية المسيطرة ، وبالذات الشركات متعدّدة الجنسيات.

القلق مشروع ، وعن الهوية العربية الإسلامية نتساءل :

ب- الانبعاث... ممكن ؟

العولمة تضع أمام العالم العربي والإسلامي سؤال المستقبل ، في ظل عالم شديد التغير والتحوّل والتطوّر.

هل نملك مقومات الصمود ؟

هل يمكن أن يكون للعرب مكان في خطاب العولمة ؟

الهوية الإسلامية : هل ستلغى ؟.. أم ستنصهر ؟.. أم تراها ستنبعث ؟

الإجابة بالتأكيد ليست سهلة ، والأمر يستدعي جملة من المراجعات ، منها تجديد النظرة إلى العالم وقبل ذلك إلى الذات.

إنّه إذا كانت العولمة ، بأسئلتها الصامتة والمتجدّدة ، عملية غسيل حقيقية للأدمغة، فإنّه من الأجدر بنا ولنا أن نستنهض هويتنا بعناصرها العقدية والحضارية ؛ والّتي تعدّ بمثابة القدرة الخلاقة المستمرة الّتي تمدّ الكيان الاجتماعي بأسباب وعوامل تحقيق التوازن بين الحاجات المعنوية والمادية. والهوية هي الحافز الرئيس للعمل والبناء ، وهي سبيل الوحدة والتعاضد على المستوى الداخلي للمجتمعات والشعوب.

هذا لا يعني أنّ الهوية الثقافية ذات نظام مغلق ، موغل في العزلة ، بعيد عن حركة الحياة. إنّ العنصر الثقافي في هويتنا قادر على صناعة التحضر والتمدن في مختلف الحقول والمجالات[1].

ويبقى السؤال قائما ، وهو : هل ستسمح إيديولوجيا العولمة للهوية الثقافية بالانبعاث والاستنهاض ؟

إذا كانت العولمة تعني ذوبان الخصوصية والانتقال من الخاص إلى العام ، ومن الجزئي إلى الكلي ، ومن المحدود إلى الشامل ، فإنّ الهوية عل خلاف ذلك ، إذ يأخذ مفهومها اتجاها

[1] محمد محفوظ، الإسلام ، الغرب.. والمستقبل ، ص 146

متطابقا كليا مع مفهوم الشمولية والعمومية ، فالهوية انتقال من العام إلى الخاص ومن الشامل إلى المحدود.. إنّها تبحث عن التمايز والتباين والمشخص والمتفرّد والمعيّن. أمّا العولمة فبحث عن الشامل واللامحدود.

من هنا تتأسس علاقة جدلية فريدة بين مفهومين منفصلين ومتصلين في آن واحد. وفي دائرة هذا التجاذب والتنافر ، يأخذ مفهوم الهوية على الغالب "دور الطريدة ، بينما يأخذ مفهوم العولمة دور الصياد " حسب تعبير (د/ علي عطفة)[1].

ج– اختراق الهوية :

لقد اقترن هذا المفهوم بالتطور التقني في مجال الاتصالات والمعلومات ، وتنوع مجالات المعرفة الإنسانية ، وإنتاجها والتحكم فيها من جانب الأقوياء ، وتوظيفها كوسيلة للسيطرة والتحكم في الضعفاء تحت شعار "عولمة الثقافة".

والمقصود بهذا المصطلح البريء في ظاهره ، المدمّر للثقافات الأخرى المحلية والقومية في باطنه – أي جعل هذه الثقافات – تستقي روحها وتوجهها من أهداف النظام العالمي الجديد، حيث يفرض هذا النظام نموذجا لغويا معيّنا يحمل في طيّاته شحنات فكرية وقيمية غريبة عن المجتمعات الضعيفة ، وآخر استهلاكيا يساعد على هيمنة الأقوياء وإضعاف طموح الأمم الأخرى ذات الحضارة العريقة ، أو تلك الّتي تملك بديلا فكريا وثقافيا.

ومن هذا المنطلق يكون وسيكون للعولمة تأثير خطير على عناصر تشكيل "الهوية الثقافية" للأمم وبخاصة على وسيلة التواصل الأساسية : اللغة — نواة الهوية — إذ بات تأثيرها في اللسان أمرا واقعا لدى النخب السياسية والإدارية والاقتصادية ، وامتدّ هذا بكل أسف حتّى إلى بعض شرائح الطبقة المتوسطة في بلادنا.

من المواقع الاستشرافية الّتي تصبّ في منحى التسابق على موقع الصدارة بين اللغات الحية في هذا القرن الجديد ما أشار إليه(صامويل هانتنغتون) المنظر للعولمة الأمريكية ، من أنّ العالم يتوجّه نحو حرب حضارية تكون فيها القيم الثقافية والرمزية هي الحدود القتالية بين

[1] ينظر: نزوى، تصدعات الهوية وهزائمها

الحضارات. وهذا ما يحدث حاليا تحت ما يسمّى بمحاربة الإرهاب كغطاء للتمويه ، ولكنّها حرب شاملة موجّهة ضدّ الإسلام وكل من ينتمي لهذه العقيدة.

يقول السياسي الفرنسي والوزير السابق في الحكومة الفرنسية (بينوت) : "لقد خسرت فرنسا إمبراطورية استعمارية ، وعليها أن تعوّضها بإمبراطورية ثقافية ، وهذا يعني أنّ المدخل الحقيقي للاستعمار الجديد هو الهيمنة اللغوية والثقافية".

د- الثقافة والهوية :

العلاقة بين الثقافة والهوية علاقة تلاحم.. كل خلخلة أو اختراق للثقافة سيؤدي بالضرورة إلى إضعاف لمكونات الهوية إن لم نقل تفتيتا لها مستقبلا. إنّ الخطاب حول "الهوية" أصبح سائدا في كل ساحات النقاش الفكري ، ليس في الدول الضعيفة فحسب، بل حتّى في الدول المتقدمة ، فهذا الاتحاد الأوروبي الذي أصبح يشكل قطبا سياسيا واقتصاديا وثقافيا كبيرا في العالم ، خاصة بعد أن أصبح يتكون من خمس وعشرين دولة، يتوجس خيفة من الاختراق الثقافي الأمريكي ، ويتخذ العديد من القرارات العلمية لمواجهة مكونات النمط الثقافي الأمريكي. نقاش فكري ساخن هنا وهناك إلى درجة أنّ المؤرخ (ألفريد غروسير) رأى أنّ هناك : كلمات قليلة أخذت هذه الأيام البعد الذي أخذته كلمة الهوية... فالهوية تحتلّ الصدارة في النقاشات الفكرية.

هـ- هستيريا الهوية :

(أريك دوبان) الصحفي الفرنسي في كتابه الذي عنونه بـ "هستيريا الهوية" يستهل الكتاب بعبارة : "من أنا ؟"

إذ يرى بأن فكرة الهوية تعدّت ما هو معروف ومتداول لدى أغلب المفكرين والمثقفين ورجال الإعلام.. ففي تحليلاته في هذا الكتاب يؤكد مباشرة وبوضوح ، بأنّ الألفية الثالثة تبدأ في ظل حالة من تفاقم اللامساواة بين فقراء العالم وأغنيائه ، بل وداخل كل شعب وأمّة، وهذا بعد قرن من سيادة النزعة الداعية إلى "المساواة" وإتاحة الفرص للجميع في ظل الإيديولوجية الشيوعية والنظام الاشتراكي.. لكن مع فقدان هذه الأفكار مصداقيتها في أرض الواقع ، فقدت نزعة المساواة المطلقة أيضا الكثير من حضورها ؛ في الوقت نفسه بدا أنّ التمركز الذي كان حول

التأكيد على المساواة ، قد أخلى المكان للتأكيد على "الهوية" ، فتضاءلت الرغبة أن يكون المرء "مثل الآخرين".. استنادا إلى هذا يمكن طرح التساؤل التالي :

– هل تتمكن العولمة على المدى المتوسط والبعيد تفتيت الهويات الأخرى واحتواءها ؟ وإذا حدث ذلك ، كيف يتمّ ؟ وبأيّة وسائل ؟ طالما أنّها نجحت الآن في تفتيت اقتصاديات هذه الدول وأفرغتها من كل ما يعمل على بقائها وفرض نمطيات أخرى في التسوق والاستهلاك.. بل وحتّى زرع قيم أخرى لدى الإنسان تحفزه على تقبّل هذه القيم الجديدة.

صاحب كتاب "هستيريا الهوية" يوضح أنّ مسألة الانتماء في بعض البلدان أدّت إلى حروب ونزاعات أزهقت عشرات الآلاف من الأرواح : "مسألة الانتماء إلى الهوية أخذت أبعادا جديدة دفعت في بعض الأحيان إلى اللجوء للعنف الدامي ، كما حدث في يوغسلافيا ، كوسوفو ، منطقة القوقاز ، منطقة البحيرات بإفريقيا السوداء وغيرها من مناطق أخرى.. وأنّ هذه النزاعات قد قامت حول مفهوم "الهوية" وتأكيدها والاستماتة من أجل إبقائها أو إبرازها ماثلة ومؤثرة... وتجد قوتها القاتلة على أساس افتراض أو هوية ثقافية – مزعومة – تتناظر بالضرورة مع هوية سياسية،ولكن مزعومة هي أيضا في الواقع "[1].

إنّ مفهوم "الهوية" لا يجب أن يؤخذ بالبساطة و العفوية ، إذ لا يزال يلقى الكثير من الغموض ، فهناك من المفكرين من يصل به الأمر إلى حدّ القول إنّ الهوية لا وجود لها أصلا ، ذلك أنّ الهوية الشخصية تُفترض أن يبقى الإنسان نفسه على مرّ الزمن.. أمّا الهوية الجماعية فهي أكثر إشكالية.. الهوية الجماعية تفترض (التماثل التام) في الـ: (نحن) الجماعية ، بينما البشر مختلفون تبعا لطبيعة الظروف الّتي تكوّنوا في إطارها ، وتبعا للبيئة الّتي يحيوْن فيها ومكوّناتها الحضارية والثقافية والاجتماعية ، وهذا عبّر عنه الفيلسوف الفرنسي (ديول ريكور) بالقول : "... إنّ أهواء الهوية متجذرة فينا بعمق ، وليس هناك أي شعب يعاني منها أكثر من شعب آخر...".

وعليه إذا كانت العولمة نجحت على الأصعدة الاقتصادية وعلى صعيد الاتصالات، والمعلوماتية ، وحركة رؤوس الأموال وتدفقها ، وتنقل الناس ، بل وإقامتهم المؤقتة والدائمة هنا

[1] هستيريا العولمة، ص20

وهناك ، وفتح الأسواق ، وتدفق السلع والبضائع ، وفرض النمط الاستهلاكي الغربي ، فإنّ هذه كلها لم تؤدّ إلى اختفاء التطلعات المتعلّقة بـ "الهوية".

إنّ ما يؤكده الواقع المعيش في أكثر من موطن وأكثر من بلد بما في ذلك عالمنا العربي الإسلامي ، وجود نوع من "هستيريا الهوية" يتمثل في عدم اندماج الفرد بسهولة وبشكل طبيعي ، كما كان الأمر في الأمس في علاقته مع الأسرة ، ومع فضاء العمل ، وفي الجماعة والأمة.. وحالة التنصل من الرباط الأسري في سنّ مبكرة وبخاصة داخل الحواضر والمدن الكبرى.. ذلك أن تعقد الحياة المعاصرة أو ما يسمى بالحداثة ، وما نجم عن ذلك من اضطرابات في السلوك واهتزازات في العلاقات بين الناس ، دفعت هذا الإنسان بقوة نحو تفرّده بهويته وفرضها بأية طريقة.

و– أزمة هوية :

لئن تبلورت لدينا مما سبق بعض الأفكار الّتي أوضحت أنّ إشكالية الهوية وخطابها الفكري لا يزالان سائدين بشدة في أيامنا هذه مثلما كانا سائدين في بداية النهضة وخلالها ، فإن سؤال الهوية يبقى في مقدمة الأسئلة الفكرية بل والمعرفية الأكثر إلحاحا ، عندنا نحن العرب :

- من أنا ؟
- ما علّة وجودي وما غايته ؟
- ومن هو هذا الآخر ؟
- ما الذي يميّزني عنه ؟
- ما يربطني به ؟
- ما وجوه الاختلاف بيننا ؟

"ولكم نخطئ عندما نحصر سؤال الهوية في صيغة : من نحن ؟ ومن هو الآخر ؟ ولا نحصره في الآتي : كيف نحن ؟ وكيف هو الآخر ؟ "[1].

---
[1] جاد عبد الكريم الجباعي، حرية الآخر: نحو ديمقراطية للمسألة القومية ،ص 13

السؤال في الصيغتين هو سؤال الهوية ، بيد أنّ الصيغة الأولى تحيلنا على ماهية "الهوية" وجوهرها. أمّا الصيغة الثانية فتحيلنا على الواقع والتاريخ. الصيغة الأولى تدعو إلى التأمل وإعمال الفكر ، بينما الصيغة الثانية تدعو إلى التحرك الإيجابي الفعال والمشاركة ليس في صياغة التاريخ ، بل في صنعه إلى جانب الآخر.

صيغة تحصر "الهوية" في مجال الفكر والثقافة ، بل هناك من يختزل عنوانها في "التراث والفلكلور والثقافة الشعبية" ، ليتحوّل لديها مفهوم الهوية إلى مفهوم الجوهر الثابت السرمدي، وصيغة ثانية تضعها كما سبق في مجال التاريخ والصيرورة الاجتماعية للتاريخ المتحرّك أماما وليس خلفا.. تاريخ إنتاج البشر لوجودهم في كل مجالات الحياة ، فيرتبط لديها مفهوم "الهوية" بالفاعلية الإنسانية الحية وبفكرة التغير والتقدم. الصيغة الأولى تقليدية في نظرتها إلى "الهوية" ترفض الاختلاف والتعدّد . فطابو الجماعة أو الأمة ينفي الفردية ... الواقع الفعلي ، الحرية الفردية... في النهاية نفي كلي للحرية الجماعية.

ثمّة إذن هوية فكرية هي عقلية وضرورية ، لكنّها إذا قطعت عن الواقع بأبعاده الثلاثة : التاريخية والكونية والمنطقية.. وهناك هوية واقعية تحيل على التغير والتطور والصيرورة التاريخية ومنطق الشكل والتشكل وتؤسس للحرية الفردية والجماعية.

ز- هزائم الهوية العربية :

طرح سؤال الهوية في التاريخ العربي الحديث المعاصر ، ولا يزال يُطرح كما سبق القول ، وسيبقى يُطرح بصيغتين متباينتين يجوز التعبير عنهما مجازيا "بالصوت والصدى"، "أو الفعل وردّ الفعل".. إحدى هاتين الصيغتين كانت محور الخطاب النهضوي العقلاني المتجه إلى المستقبل ، الخطاب المحفز على التحرك ، الخطاب الفعال المساهم في صناعة التاريخ من موقع قوّة.. والصيغة الثانية كانت ولا تزال محور الفكر المهزوم والانهزامي.. فكر يستند إلى التسويغ والتبرير والفرار إلى الماضي والاحتماء بمحطاته المضيئة والتغني بأمجاده والدفاع الوهمي عن الذات.

وإذا كانت آليات الخطاب النهضوي تقتضي العودة إلى الأصول في التاريخ والتراث، من أجل الانطلاق منها وبها إلى المستقبل ليس حفاظا على الذات الهشّة أمام الآخر ، بل في إعادة صنعها من جديد وتقوية عودها للوقوف بجانب الآخر الندّ للندّ.. إلاّ أنّه غالبا ما تحوّلت هذه

العـودة بعـد الإخفاقـات المتعـدّدة ، والانتكاسـات المتتاليـة إلى احتمـاء بالماضـي.. ممّـا تولّـد عنـه نكوص أسوأ.

لـئن كـان سـؤال الهويـة مطروحـا في العـالم العـربي الإسـلامي ، وخاصـة في العـالم العـربي ومحمّلا بمرارة الآمال الخائبة ، والأحلام المهيضة ، فلأنّ (الإنسان قد أشكال عليه الإنسان) كما قال أبـو حيـان التوحيـدي ؛ أي أنّ الإنسـان لم يمتلك ذاته ولم يتصـالح مع نفسه بطريقـة عمليـة ملموسـة تتجسـد سياسـيا ، وتتجسـد في نظـام أخلاقـي معـيّن علـى أرض الواقـع ، وفي نظـام اقتصادي يتوفر على العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص1.

ح– الهوية بين الثابت والمتحرك :

لا يمكننا تناول موضوع "الهوية" بمعزل عن جملة من المسائل المتداخلة ، وعن جملة من التأثيرات الداخلية والخارجية ، فالحراك الاقتصادي والاجتماعي والثقافي داخل المجتمع واحد، والحراك الدولي والتداول الاقتصادي والمالي والثقافي والصراع على النفوذ والسلطة داخل المجتمع ، وكذا على الصعيد الدولي : " فهوية مجتمع من المجتمعات ليست أمرا ثابتا سرمديا داخلي المنشأ ، بل يرتبط تطور الهوية بالمؤثرات الخارجية ، وبالتداول الدولي للأفكار والثقافات والحضارات ، كما يرتبط بالصراع على السلطة داخل كل مجتمع ، وهي الصراعات الّتي تشحذها هي نفسها بصورة مباشرة أو غير مباشرة المؤثرات الخارجية ولعبة التوازنات، واختلال هـذه التوازنات على مستوى المناطق الجغرافية الكبيرة ، وبالتالي المنافسات بين الدول الإقليمية والدولية "2.

ط– حالة انفصام :

في الحقيقة نحن اليوم لسنا في موقع قوة يتيح لنا الاختيار بين هذا النموذج أوذاك. لقد فرض الغرب نموذجه على جميع الشعوب ونحن منها.. لكن كيف يمكن التوفيق بين الصيغتين ونحن عمليا نعيش حالة انفصام وحالة زيف مع أنفسنا ، نكره الآخر ونستلذ بثمار حضارته ، نتغنّى بهويتنا ونتمسك بها ظاهريا.. وهي حالة ناجمة عن وجود بُعدين للهوية : الأوّل تاريخي مبني على الذاكرة الجماعية ، ويعبّر عن جوهر ثابت ودائم سكوني سرمدي ، وآخر عملي

[1] المرجع السابق ، 20
[2] مجلة فكر و نقد، التراث وتحديات العصر، ص 23

ونفعي يقيم في الحاضر معنا ، وقد اقتحم بيوتنا ومحيطنا وفكرنا. نحن نعايشه ونتعامل معه في كل آن ، ويتمّ من خلاله التعامل مع الواقع وصوْغ أفكارنا ورؤيتنا للكون وللحياة. من جهة أخرى أنّ العامل النفسي للهوية التاريخية يلعب دورا بارزا في جرّ الحركة إلى الوراء، ممّا يؤكد قول أحدهم : "إنّ مجتمعاتنا تسير ورؤوسها إلى الخلف "1.

– لكن ما علاقة الهوية بالأمة ؟

– هل يمكن للهوية أن تبقى محافظة على ذاتها دون سند الأمة ؟

– هل تتمكن من التفاعل مع الهويات الأخرى وتستفيد من الآخر ؟

يقول (مايكل بيليج) : " إنّ الأمة ترفع لنا كراية كل يوم ، ونحن نميز ونستخدم ونلتمس الراحة من الرايات والعملة الوطنية والرموز القومية الأخرى لوظائفها المألوفة ، كذلك يجري استخدام تعبير (نحن) في الصحف اليومية لتذكرنا على نحو مطرد بأنّنا جزء من أمّة ، وأنّنا مختلفون عن الآخرين.

لهذا فالقومية ليست مجرّد عقيدة ، وإنّما تعطي الإنسان شعورا بالهوية والانتماء ، وتساعد على إدراك أنّ له مكانة وأنّه ليس مجرّد فرد نكرة ، إنّما يشترك مع عدد كبير من البشر في جملة من المعطيات والمكوّنات والأهداف والآمال الّتي تخلق لديه شعورا بأنّ له شخصية وكيانا ، لأنّ ثقافة ما تؤلف جسما معقدا من المعايير والرموز والأساطير والصور الّتي تنفذ إلى الفرد في خصوصيته ، فتذهب غرائزه وتوجه انفعالاته ، فهي تغذي الكائن نصف الواقعي ونصف الخيالي الذي يفرزه كل فرد في داخل ذاته ويتغلّف به وهو الشخصية".

" نحن في حاجة إلى التحديث كفاعلين مساهمين ، ولكن في حاجة إلى مقاومة الاختراق وحماية هويتنا وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي ".2

لسنا في حاجة إلى من يدفعنا إلى الهرولة في أحضان العولمة والدعوة إلى الانفتاح على الحضارات المغايرة ، لاسيما تلك الّتي تدّعي لنفسها صفة العالمية وتفرضها بالحديد والنار ، بحكم قوّتها الاقتصادية والإعلامية والثقافية ، وبحكم سيطرتها العسكرية وتسلطها. هذا بديهي..

[1] مجلة فكر و نقد، أزمة هوية أم أزمة إدراكٍ

[2] محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية. عشْر أطروحات

فالمشكلة لا تصاغ بعبارات مثل : هل نتفاعل أم لا ؟ المشكلة الحقيقية تكمن في شروط هذا التفاعل ، ومنطلقاته ، وبمدى تحكّمنا في هذه الشروط ، ولسنا بحاجة لمن ينصحنا بالمسارعة في ركوب قطار – العولمة – قبل أن يتركنا في محطات التخلف.. فنحن على استعداد لركوب هذا القطار ، لكن كركاب بشر ، يحملون "هوياتهم" و"جوازات سفرهم" و"أشياءهم الخاصة" ويعرفون وجهة سفرهم.. لا أن يُحملوا إليه كالسوائم والأنعام ، حسب تعبير الأستاذ محمد راتب الحلاق[1].

ك– هوية مخترقة :

أزمة "الهوية" ليست أزمة ذات تعاني من غزو خارجي عندنا ، ولكن ذات منقسمة وتبحث عن ذاتها الأخرى المقموعة والّتي لن يحرّرها إلاّ الحوار معها ومع الآخر. فعندما ينفتح الآخر على المختلف معه ، وتتأسس فلسفة بأكملها تدافع عن وجوده الحي المبدع – هذا المختلف – بين مساحات هذه الفلسفة ، فنحن مطالبون أن ننصت للغرب في تحرّكاته المعاصرة وتشييد ديمقراطيته على مبادئ من التحاور والتبادل الرمزي الفاتن. ها هنا فقط تتراجع المطلقات لصالح حق الفرد في الحرية والتشكل المستقل ، لصالح وعي "هوية" مناهضة للضيق والانغلاق والتعصب ، تستفيد من كل الروافد الحضارية وتستلهم منها روحها المشرئبة نحو المستقبل.

وبعد؛

يعتقد أغلب المفكرين العرب والمسلمين أنّ البعد الثقافي للعولمة هو الأهم والأخطر لما يحوزه من أهمية في بلورة "الهوية" الّتي هي مجموعة معالم والثقافة واحدة منها، فالفرد من خلال الثقافة يتعرّف على هويته ، والثقافة هي البوصلة للمجتمع ، ممّا يعني أنّ المساس بأحد عناصر الثقافة أو التأثير عليها هو مساس بـ"الهوية".

البعد الثقافي لما يمثله من تحدّ كبير على العالم العربي الإسلامي الذي تعيش بلدانه غيبوبة ثقافية ، وتستنزف قواها – إن كان لها قوى – في دائرة من اللغو ، واللغو المضاد.. وكأنّ الأمر لا يعنيها.

[1] مجلة الفكر السياسي ، العولمة وسؤال الهوية.

وحسب أغلب المفكرين وحتّى المنصفين من الغرب ، فإنّ الهجوم الكاسح للعولمة سيؤدي إلى الارتداد نحو التشبت بالثقافة و"الهوية القومية" ، غير أنّ المعركة ستكون خاسرة ما لم تتحوّل مقاومة سلبيات العولمة إلى مقاومة عقلانية ، إيجابية تتسلح بأدوات ثقافة العولمة نفسها ، القائمة على أساس اقتصادي علمي تكنولوجي متين.

ثانيا: ماذا عن عولمة اللغة؟

اللغة وسيلة اتصال البشر بعضهم ببعض ، وهي ذات علاقة ثنائية الاتجاه بما يعتقده الإنسان ، ولهذا فلا يسع أي دارس لظاهرة عالمية بصرف النظر عن منحاها أن يهمل دراسة تأثير اللغة في هذه الظاهرة ، فما بالك إذا كانت هذه الظاهرة متعدّدة الجوانب ، مترامية التأثير والتأثر كظاهرة العولمة ؟!

لقد كتب الكثير عن العولمة ، وكأي موضوع يستجد في ساحة الفكر العالمي تبدأ الدراسات المتعلقة به ، صغيرة بصغره ، لكنّها تنمو وتتسع دائرتها ، حتّى تنتقل إلى مرحلة تفتيت الموضوع قيد البحث ، إلى الدراسات وازدياد خبرة الفكر.هكذا اتسعت دائرة العولمة و مجالاتها الّتي وضعت قيد البحث ، فظهرت دراسات عن العولمة الاقتصادية، ثمّ عن العولمة السياسية ، وكذلك العولمة الثقافية ، وكذلك تناولت بعض الدراسات أنماطا أخرى من العولمة مثل العولمة الإعلامية ، والعولمة الاجتماعية ، إلاّ أنّ الدراسات التي تناولت عولمة اللغة لا يكاد الباحث يعثر لها على أثر ، إلا ما ندر.

أهمية اللغة موضوع طويل بحاجة إلى دراسات مستقلة ، والأبحاث فيه ليست بالقليلة ، ولهذا سنقتصر في هذا المدخل على جوانب أهمية اللغة الّتي لها اتصال مباشر بالعولمة اللغوية باختصار شديد.

1- وعاء لأساس:

اللغة وعاء الثقافة ، والثقافة أساس الحضارة ، والحضارة ترجمة للهوية ، ومن هنا كانت اللغة من أهمّ الأركان الّتي تعتمد عليها الحضارات ، ومن أهمّ العوامل الّتي تساهم في تشكيل هوية الأمة ، وكلّما كانت اللغة أكثر اتصالا بثقافة الشعوب كانت أقدر على تشكيل هوية الأمة وحملها.

وبهذا ندرك السر في نهي الشريعة الإسلامية عن استعمال لغة الغير (الرطانة) دونما حاجة1، في الوقت نفسه الذي نجد فيه بعض الفقهاء أوجب تعلّم اللغة العربية2.

والشعور بهذا الخطر الذي تمثله اللغة الوافدة لم يكن وليد ظروف معينة حملت الفقهاء على هذا الرأي ، لكنه حقيقة مرتبطة بطبيعة النفس البشرية الّتي تميل إلى المشابه والمماثل ، والّتي تقترب من الكائن الآخر إذا أمكن التواصل معه ، وتبادل مكنونات النفس معه.

ولهذا فلا نعجب مثلا حينما نرى أنّ بعض المفكرين اللغويين في بعض البلاد الّتي تعتبر نفسها أمّة عربية ، يرون أنّ الغزو اللغوي الإنجليزي لا يقلّ خطورة عن الغزو العسكري.

إنّ الاعتزاز باللغة ليس وليدا لاعتزاز بذات اللغة بقدر ما هو اعتزاز بالثقافة الّتي تمثلها هذه اللغة ، ونحن نقرأ في العصر الحديث مثلا أنّ من أكبر العوائق الّتي وقفت في وجه اتفاقات السلام في مقدونيا الاعتراف باللغة الألبانية لغة ثانية في البلاد ؛ فلماذا كل هذا الاختلاف والصراع حول مجرّد لغة ؟

2– اللغة من مقومات الوحدة :

بها تنهض الأمم ، ويعلو شأنها ، وتتحقق وحدتها ، وفي غيابها تتفكك الشعوب وتضمحل الروابط وتتداعى ، وينحسر الانتماء.

إنّ الدول الّتي يتحدث أهلها بلغة واحدة تكون أكثر تماسكا وانسجاما من الدول الّتي تتحدث بعدة لغات ، بل إنّ وحدة اللغة من أهمّ عوامل الاستقرار السياسي والاقتصادي ، وهذا واضح في الدول الإفريقية إذا ما قورنت بدول أوروبا وأمريكا.

---

1 انظر: ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم ، 1/203 - 208

2 الشافعي، الرسالة ، ص 49

لقد اعتبر (جمال الدين الأفغاني) إخفاق الدولة العثمانية في عدم استخدام اللغة العربية لغة رسمية لجميع البلاد الإسلامية الواقعة تحت حكمها من أهمّ العوامل الّتي ساعدت على قيام النعرات القومية بين العرب والترك ، والّتي كان لها أكبر الأثر في سقوط الدولة العثمانية على المدى الطويل1.

ومن أجل هذا فليس من المستغرب أن يؤكد بعض الباحثين أنّ البلاد المجزّأة لغويا بشكل كبير بلاد فقيرة دائما2.

ويذهب بعض الباحثين إلى " أنّ التعدّد اللغوي بين دول المجموعة الأوروبية يعدّ عقبة أساسية تحول دون انصهارها في كيان واحد "3.

وتأسيسا على ما سبق ندرك خطورة دخول لغة أجنبية على قوم ما ، هذه الخطورة متمثلة بمجرد مزاحمتها للغة القوم ، بصرف النظر عن كونها أقوى أو أضعف ؛ فما بالك إذا كانت الوافدة تملك من المقومات أكثر مما تملك اللغة المحلية! كأن تكون اللغة الوافدة لغة الغالب ، أو اللغة الّتي تمنح متحدثها ميزات اجتماعية، أو مالية ، أو نحو ذلك.

وبكل حال ؛ فإنّ ذلك يقود في الغالب إلى احتواء الثقافة المحلية بصورة تدريجية مما يجنبها مواجهة أية مقاومة ، ومن ثمّ ستكون لها آثار مدمرة على المدى البعيد.

إذا علم هذا أدرك الإنسان تلك الحكمة الإلهية المتناهية حينما جعل كتاب هذه الأمّة المقدس الذي يمثل دستور حياتها ، كتاب محفوظ الألفاظ والحروف ، وأن تطالب الأمّة بتعلّمه وتلاوته كما هو بلسانه الذي أنزله الله به ، وما أعظمه من حكيم الذي لم يقصر ارتباط هذه الأمّة بهذا الكتاب على التشريع ، بل شرع معه التعبد بتلاوة نفس اللفظ بحروفه ، وزاد على ذلك بأن جعل هذا الكتاب كلامه ، صدر منه جلّ وعلا بصوت وحرف ، مما يشعر المسلم معه بارتباط عاطفي روحي بمجرد لفظ هذا الكتاب ، زيادة على ارتباطه التشريعي به.

1 ينظر: جمال الدين الأفغاني الأعمال الكاملة ،ص77
2 عالم المعرفة، اللغة والاقتصاد، ص 48
3 نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، ص55

وبهذه المناسبة ، وإن كنا نستبق بعض فقرات هذا البحث ، فإنّنا نقول : إنّ الأمّة المسلمة تملك من مقومات الوحدة اللغوية ، ومن ثمّ الوحدة الحضارية ما لا تملكه أمّة من الأمم ؛ فوحدتها اللغوية ليست نابعة من مصلحة أرضية مؤقتة ، لكنّها تنبع من عقيدة سماوية طاهرة.

ما المقصود بالعولمة اللغوية ؟

ماذا نقصد بالعولمة اللغوية ، أو هل هناك عولمة لغوية ؟ إذا نظرنا إلى مدلول العولمة الذي يعني جعل ما هو محلي عالميا ، أو الانتقال من المحلية الإقليمية إلى العالمية ؛ فهل هناك لغة انتقلت من المحلية إلى العالمية ، فتجاوزت نطاقا جغرافيا محصورا ببلد أوعدة بلدان ، لتصبح لغة عالمية يتحدث بها العالم كله على اختلاف لغاته الأصلية ؟ لا شكّ أنّ الجواب الواضح هو الإيجاب، ولا شكّ كذلك أنّ تلك اللغة الوحيدة الّتي يصدق عليها ذلك الوصف هي اللغة الإنجليزية.

وفي العقد الأخير يمكن القول إنّ سيطرة اللغة الإنجليزية وانتشارها العالمي الذي تضاعف مع الهيمنة الاقتصادية والإعلامية الأمريكية ، ثمّ بسبب تزايد استخدام شبكة الإنترنت أدّى إلى اتساع نطاق استخدام كلمات وعبارات إنجليزية تعبر عن الثقافة الأمريكية والقيم الاستهلاكية الّتي قد لا تتناسب مع قيم بعض الأمم الّتي تعتبر نفسها عريقة ، مثل الألمان ، والصينيين ، والفرنسيين ، دون العرب وللأسف.

مظاهر عولمة اللغة الإنجليزية :

أوّل مظاهر عولمة ظاهرة من الظواهر أن تنتقل هذه الظاهرة من المحلية إلى العالمية، وهذا تماما ما يحدث للغة الإنجليزية ، أو لنقل ما يقوم به البشر نحو اللغة الإنجليزية.

ثمة إشكال إحصائي لا بد من الإشارة إليه ابتداء ؛ إذ تحدثنا بعض الأرقام عن اتساع نطاق استخدام اللغة الإنجليزية ، سواء كانت لغة أولى ، أو لغة ثانية ،في المقابل يوجد إحصاءات أخرى تدلّ في أقلّ الأحوال إلى انحسار ضئيل في اتساع هذه اللغة ، ويبدو أنّ من أهمّ أسباب هذا التناقض باختصار شديد أنّ كثيرا من الدول النامية لا تملك إحصاءات دقيقة عن انتشار هذه اللغة أو لغات أخرى في بلادهم ، بالإضافة إلى تباين المعايير في الحدّ الذي يعتبر الشخص به متحدثا بلغة ما ، فما هو حجم المفردات الّتي يتوجب على الإنسان حفظها؟ وما هي كمية التراكيب الّتي عليه أن يتقنها حتّى يقال إنّه يتحدث أو يتقن لغة أجنبية ؟ وكيف

ينظر إلى من يحسن القراءة دون الكتابة ، أو العكس ؟ ومن الغريب أنّ أحد أسباب تناقص نسبة المتحدثين باللغة الإنجليزية في العالم هو التناقص الحاد في أعداد المواليد الذي تشهده البلاد المتحدثة بالإنجليزية ، وهو ما يؤدي إلى نقص عدد سكانها ، في مقابل ازدياد عدد سكان البلاد الأخرى ، ولاسيما دول العالم الثالث1.

بالإضافة إلى ما ذكر فإنّ عدد المتحدثين بلغة ما لا يمثل حقيقة انتشار هذه اللغة أو عولمتها ، فإنّ أكثر الإحصائيات ، إن لم يكن كلّها ، تشير إلى أنّ أكثر لغة في العالم تحدثا هي اللغة الصينية ، والكل يعلم أنّ سبب ذلك ليس انتشار أو عولمة اللغة الصينية بقدر ما يعود لعدد سكان الصين الهائل ، وهذا مما يزهد الباحث نوعا ما في هذه الإحصاءات ، إذا ما زاحمها في إثبات ذلك الافتراض شواهد وحقائق أخرى أقوى في الدلالة.

وبكل حال يكاد يجمع من كتب في حاضر اللغات الإنجليزية أنها هي اللغة العالمية بصرف النظر عن عدد المتحدثين بها وتوزيعهم الجغرافي ؛ حتّى إنّ كثيرا من الكتابات نظرت إلى اللغة الإنجليزية باعتبارها اللغة المعيارية العالمية2.

وهنا نكتفي ببعض هذه الشواهد والظواهر الّتي تدلنا على مدى امتداد هذه الظاهرة الأفقي :

1- شعور كثير من الأمم بهذا الخطر الداهم الذي يمثله هذا التغلغل والانتشار للغة الإنجليزية ، لاسيما تلك الدول الّتي تعتز بحضارتها ، وتنظر بريبة لانتشار الثقافة الأمريكية، ولم تستسلم بسهولة للهيمنة الأمريكية على معظم جوانب الحياة ، في معظم البلدان ، فهذه فرنسا مثلا وهي صديق لدود لأمريكا ، يدعو رئيسها جاك شيراك إلى إقامة "تحالف" بين الدول الّتي تعتمد لغات من أصل لاتيني للتصدي بشكل أفضل لهيمنة اللغة الإنجليزية ، وذلك لدى افتتاحه منتدى حول موضوع "تحديات العولمة".

---

1 ينظر بعض الإحصاءات الموجودة في موقع http://www.krysstal.com/ english.html

2 ينظر: 1996 ، December، The Economist، نقلاً عن: مستقبل اللغة الإنجليزية، ص 39

وقال الرئيس الفرنسي لدى افتتاحه منتدى في جامعة السوربون جمع بين الناطقين بالفرنسية والإسبانية والبرتغالية إنّه "لمواجهة قوّة نظام مهيمن يحق للآخرين حشد القوى لإرساء المساواة في الفرص وسماع أصواتهم".

ودعا (شيراك) الناطقين بالإيطالية من الاتحاد اللاتيني إلى الانضمام إلى منظمة الفرانكفونية ومجموعة الدول الناطقة بالبرتغالية والمنظمتين الناطقتين بالإسبانية للدول الأمريكية – الأيبيرية والقمة الأيبيرية – الأمريكية.

وأضاف أنّه " من خلال منظماتنا الخمس تصبح هناك 79 دولة وحكومة من كل القارات تمثل 2,1 مليار رجل وامرأة يريدون الإبقاء على لغاتهم ".

ودعا (شيراك) إلى القيام بتحرك في الأمم المتحدة بالاتفاق بين المنظمات الخمس لإقامة "مشاريع مشتركة".

ودافع (شيراك) عن مبدأ " تعددية اللغات في المجتمع الدولي " ودعا شركاءه إلى "الاستثمار بقوة في شبكات المعلوماتية" مقترحا إنشاء موقع للثقافات اللاتينية على الإنترنت.

وأعرب أخيرا عن أمله في أن تعترف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) رسميا بـ "حق التعددية الثقافية" من خلال إصدار "إعلان عالمي يكون بمثابة ميثاق تأسيسي"1.

وهكذا نجد أمّة أخرى مثل الصين ينتابها القلق من هذا الانتشار الواسع للغة الإنجليزية في بلادهم من خلال الأفلام الأمريكية الّتي يحرص الشباب على متابعتها ثمّ التأثر بها ، مما دفع الحكومة الصينية إلى إصدار أوّل قانون للغة من أجل الوقوف أمام الخطر الذي يتهدّد اللغة الصينية ، ويلزم القانون الذي بدأ العمل به اعتبارا من مطلع شهر يناير 2001م وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة بضرورة الالتزام بالأسس المتعارف عليها في اللغة الصينية المعتمدة على الكتابة المبسطة في الصين الأم بعيدا عن الكتابة المعقدة المتبعة في المستعمرة البريطانية السابقة هونغ كونغ2.

---

1 أخبار قناة الجزيرة على الشبكة يوم الثلاثاء، 1421/12/25هـ الموافق 2001/3/20م، وجاء في الخبر: أن الاحتفال بيوم الفرنكفونية الدولي في القارات الخمس (55 دولة) بدأ اليوم الثلاثاء، وهو نفس يوم انطلاق حركة الفرنكوفونية العالمية قبل 31 عاماً

2 الأربعاء 1421/10/22هـ الموافق 2001/1/17م

أمّا الألمان وهم أكثر الناس اعتزازا بلغتهم ، فقد كان لهم نصيب من هذا القلق المتزايد، حيث اتسع في ألمانيا نطاق المناداة بسنّ قوانين لحماية اللغة الألمانية من تأثير اللغات الأخرى وعلى رأسها اللغة الإنجليزية الّتي يعتقد اللغويون الألمان أنّ مصطلحاتها بدأت تشكل خطورة على سلامة لغتهم ، ويرغبون أن تحذو ألمانيا حذو فرنسا في هذا المجال.

فالألمان الذين هدموا قبل عقد مضى جدار برلين الشهير ، في ثورة سلمية أعادت الوحدة إلى شطري بلدهم يحاولون الآن بناء جدار حديدي من نوع آخر للحفاظ على هويتهم الثقافية واللغوية من طغيان الغزو الثقافي واللغوي القادم من الولايات المتحدة وبريطانيا متخفيا برداء اللغة الإنجليزية ، والمصطلحات الّتي تقض مضجع اللغويين الألمان.

ويطالب هؤلاء بأن تحذو بلادهم حذو فرنسا بسنّ تشريعات تمنع استخدام المصطلحات الأجنبية في الإعلانات والوسائل الإعلامية.

ويعترف وزير الثقافة الألماني بوجود المشكلة لكنّه يرفض فكرة سنّ قوانين قد تؤدي إلى استحداث شرطة للغة ، لأنّ هذا سيكون فيه نوع من القسوة غير المسوغة.

ويتفق مع رأي الوزير عدد من اللغويين الألمان غير أنّهم يؤكدون ضرورة اتخاذ إجراء ما لحماية اللغة الّتي يعتبرونها أغلى ما تملكه أي أمّة للحفاظ على وجودها[1].

2- ومن مظاهر – وربما أسباب – عولمة اللغة الإنجليزية ، أنّها أصبحت لغة الإنترنت بلا منازع ، فقد أظهرت دراسة أجرتها إحدى المؤسسات الألمانية أنّ 77% من صفحات الإنترنت باللغة الإنجليزية ، بينما لا تتمتع باقي لغات العالم مجتمعة إلاّ بـ 23 % من صفحات الإنترنت ، وقد جاءت هذه الدراسة بعد فحص أكثر من مليار صفحة إلكترونية على الشبكة. وجاءت اللغة اليابانية في المركز الثاني ، تليها اللغة الألمانية.

الجدير بالذكر أنّ نسبة الأمريكيين المستخدمين للشبكة تتضاءل باستمرار ، إلاّ أنّهم يمثلون حاليا قرابة نصف مرتادي الإنترنت حول العالم بعد أن كان نصيبهم ثلاثة أرباع مستخدميه قبل

1 وكالة رويتر للأنباء نقلاً عن قناة الجزيرة، الإثنين 1421/12/10هـ - الموافق 2001/3/5

خمسة أعوام،1 . والظاهر أنّ ذلك يعود لازدياد عدد مستخدمي الإنترنت في العالم أكثر من كون السبب تناقص العدد الفعلي لمستخدمي الإنترنت في أمريكا.

3- من مظاهر العولمة اللغوية الإنجليزية أنّ اللغة الإنجليزية أصبحت اللغة الثانية في أغلب بلاد العالم – لاسيما العربية بدرجة أولى ، ثمّ البلاد الإسلامية بدرجة ثانية – يتلوها بعد ذلك اللغة الفرنسية2 . وبعيدا كذلك عن الإحصاءات الدقيقة الّتي تقف خلف هذه الحقيقة ، فإنّ نظرة سريعة لمناهج التعليم في العالم العربي ثمّ الإسلامي تجد مصداق ذلك ، حيث ينقسم العالم الإسلامي إلى معسكرين : أحدهما وهو الأغلب يدرس الإنجليزية لغة ثانية لأبنائه ، كما هو الحال في دول الخليج ومصر ، والسودان ، وباكستان ، وبعض دول جنوب شرق آسيا ، وأمّا الثاني فيدرس اللغة الفرنسية كدول المغرب العربي ، وبلاد الشام. ويميل المرء نوعا ما إلى صدق جانب من الإحصاء الوارد في كتاب مستقبل اللغة الإنجليزية الذي قام به المجلس البريطاني عام 1995م والذي يقول إنّ خمس سكان العالم يتكلمون الإنجليزية بدرجة ما ، وأنّ الحاجة من الباقين لتعلّمها في ازدياد مستمر ، وبحلول عام 2000م سيكون هناك بليون شخص يتعلّمون الإنجليزية ، وستصبح اللغة الإنجليزية هي اللغة الرئيسة لكثير من القطاعات التقنية وغيرها3.

4 - ومن مظاهر العولمة اللغوية عموما– بصرف النظرعن عولمة اللغة الإنجليزية – انحسار نطاق بعض اللغات ، أو حتّى اندراسها بالكلية ، فقد أفادت دراسة لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة أنّ نصف اللغات المحلية في العالم في طريقها إلى الزوال مما يهدّد الثقافات والبيئة في آن واحد.

واعتبرت الدراسة الّتي أعدّها فريق من خبراء برنامج الأمم المتحدة للبيئة أنّ "أسرار الطبيعة الّتي تتضمنها الأغاني والقصص والفنّ والصناعات الحرفية لدى الشعوب الأصلية قد تختفي إلى الأبد بسبب ظاهرة العولمة المتصاعدة في جميع المجالات".

وقد قال الخبراء إنّ 234 لغة أصلية معاصرة اختفت كليا ، محذرين من أنّ 90 % من اللغات المحلية في العالم سوف تختفي في القرن الحادي والعشرين.

---

1 ينظر: مثلاً الإحصاء الوارد في موقع http:// www.krysstal.com/english.html.

2 The Future of English? إصدار المعهد البريطاني، نشر The English Company

3 عبد الله النفيسي، البعد السياسي لقضية اللغة العربية، ص 57

وحذّر المدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة كلاوس تويبفر من أنّ تحرير الأسواق في العالم – الذي هو مفتاح التنمية الاقتصادية في الدول الغنية والفقيرة – قد يتمّ على حساب آلاف الثقافات والتقاليد المحلية.

وأشار برنامج الأمم المتحدة للبيئة أنّ حوالي 32 % من اللغات المحلية في العالم توجد في آسيا و30 % في إفريقيا ، و19 % في منطقة المحيط الهادي ، و15 % في القارة الأمريكية ، و % 3 في أوروبا.

وتأتي غينيا الجديدة على رأس الدول الّتي تنتشر فيها اللغات المحلية ، إذ توجد فيها (847) لغة ، وتليها إندونيسيا بنحو (655) لغة ، ثمّ نيجريا (376) ، والهند (309) ، وأستراليا (261) ، ثمّ المكسيك (230) ، والكاميرون (201) ، والبرازيل (185) ، والكونغو الديمقراطية (158) ، والفلبين (153).1

وقد نشرت هذه الدراسة في مؤتمر عقده برنامج حول البيئة في بيروبي في الخامس من فبراير/ شباط 2001م ، وأعلنت الأمم المتحدة أنّ حوالي سبعين وزيرا للبيئة من القارات الخمس شاركوا في هذا المؤتمر الذي تبنى في يوم انعقاده الرابع خطة للدفاع عن الثقافات واللغات المحلية الّتي تمثل إحدى الأولويات لحماية البيئة.

5- شاهد آخر غريب و طريف يدل على قوة هذا النوع من العولمة ونفوذه ، وسريانه ، حتّى إنّه فرض نفسه دون أن يشعر به المتظاهرون أنفسهم ضدّ العولمة في دافوس، ونيس، وساو باولو ، فضلا عن عموم الناس ، ألا وهي الّتي ذكرها (أليكسي باير) في مقال له في صحيفة " The Globalist " حيث قال : " إنّ اللغة الإنجليزية كانت لغة اللوحات الّتي استخدمها المتظاهرون المعارضون للعولمة في التعبير عن معارضتهم للعولمة ، وما ذلك إلاّ دليل على عولمة هذه اللغة دون أن يشعر بذلك أحد "2.

ماذا بعد؟!

---

1 قناة الجزيرة، السبت 1421/11/17هـ، الموافق، 2001/2/10م
2 المقال مؤرخ بتاريخ 2001/2/5م

كيف نقاوم هذا الاجتياح العولمي اللغوي الإنجليزي ؟ والسؤال الأهم : هل العربية قادرة على صناعة تاريخها الحاضر والقادم ؟

هل بداخل لغتنا الجميلة مقومات البقاء الّتي تسمح لها بأن تقول كلمتها في الزمن المعولم لغويا؟

الفصل الثالث

في خصائص العربية

في كتابه "اللغات السامية"، وعن لغة القرآن، يكتب (أرنست رينان)*، بلهجة القاص المذهول :

" من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سرّه ، انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة بادئ ذي بدئ ، فبدت فجأة في غاية الكمال ، سلسلة أي سلالة، غنية أي غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهمّ ، فليس له طفوة ولا شيخوخة ، ظهرت لأوّل أمرها تامة محكمة ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتّى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى ، ومن أغرب المدهشات أن نبتت تلك اللغة القومية ووصلت إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمّة من الرحّل،... وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم أعلنت ظهرت لنا في حلل الكمال ، إلى درجة أنّها لم تتغير أي تغيّر يذكر ، حتّى أنّه لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ، ولا نكاد نعلم من شأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها الّتي لا تبارى ، ولا نعلم شيئا عن هذه اللغة الّتي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج ، وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة...[1].

حيرة تحتل العقول ، لتذهب بها بعيدا وتتفرّع في مذاهب شتّى دون أن تنتهي إلى رأي أكيد.

سرّ العربية لا ينكشف لأيّ كان.

* هو رجل من أشد الناس عداء للإسلام والمسلمين ، مع ذلك لم يستطع إنكار جمال اللغة العربية وثرائها.

1 نقلا عن : أنور الجندي، المؤامرة على الفصحى لغة القرآن ، ص 17

أوّلا : من الخفاء إلى التجلي

ينتهي نسب اللغة العربية إلى العائلة الساميّة ، وكان موطن الساميّين** مسقط الأديان السماويّة ، ومهد الكتب المقدّسة.

وشأن تاريخ العربيّة البعيد شأن تاريخ اللغات كافّة ، محاط بالغموض ، ما بين مولد مجهول وطفولة ضائعة ، لكن يمكننا التمييز بين حدين تاريخيّين لهذه اللّغة :

أمّا أوّلهما فتحمله النقوش الأثرية الّتي يرقى أقدمها إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، إذ عثر على نقوش ترجع إلى (سلما ناصر) الملك الآشوري الثالث (854 ق.م) وفي نقش وجد بالعربية : " مدينته الملكيّة أنا دمّرتها... أنا حرقتها " فالنص عربيّ فصيح وقديم يدلّ على قدم العربية*.

وأمّا الثاني فيبدأ بنزول القرآن الكريم ، حيث سطعت أنوار هذه اللغة لتغمر العالم بأسره ولتدخل التاريخ من بوابة الصحراء ، مع حضارة الناقة والجمل.

ولنا في الحدّين تفصيل، فنقول :

إنّ اللغة العربية الفصيحة نشأت من الآراميّة في الشمال والسبئيّة في الجنوب ، إلاّ أنّ آرامية الشمال تغلّبت على السبئيّة في القرون القريبة من الإسلام ، ممثّلة في العدنانية مع بقاء الحميريّة في بعض مواطن اليمن إلى ما بعد الإسلام بقليل ، ولكنّ العدنانيّة في جملتها لم يحفظ كيانها بعد الإسلام ، بل تغلّبت عليها المضرية بنزول القرآن بلغة مضر ، ولأنّ أكبر أهل الحل والعقد من العرب كانوا من مضر وخاصة قريش1.

** الساميون هم مجموع الشعوب الآرامية الفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية الآشورية (أو الأكادية نسبة إلى بلد أكاد) وتقتبس التسمية من الكتاب المقدس : سفر التكوين ، الإصحاح العاشر ، نسبة إلى سام بن نوح ، دراسات في فقه اللغة ، ص 47 وما بعدها.

* وتصل إلينا أحيانا نقوش لا تفهم مثل : " وهبتم وأضهوا منو كلبت هنينو زهن إلى مقه زهرن زن مزندن حجن ومهمتهو بمسألهو لوفيهمو وسعدهمو نعمتم ". ينظر: د. توفيق محمد شاهين، عوامل تنمية اللغة العربية ، ص 41.

1 ينظر: محمد عطية الإبراشي، الآداب السامية ، ص 114

يقول الشيخ (الخضر حسين) : " ... أقصى ما ثبت في التاريخ أنّ هذه اللّغة كانت في قبائل من ولد سام بن نوح ، وهم عاد وثمود... وانقرضوا ، ثمّ انتقلت إلى قحطان وإلى يعرب ابن قحطان ، ونشأت منها الحميريّة لغة أهل اليمن ، ثمّ انتقلت إلى أولاد إسماعيل "1.

وظهرت اللهجات العربيّة في الشرق الأدنى وفي شبه الجزيرة العربية ، وشاعت بتشجيع من تعدّد المواطن والقبائل ، لكنّ اللهجة المضريّة الّتي كانت تختلط بالحميرية وبسائر اللهجات ، أخذت تتخلّص من الشوائب وتتسامى ، لتهيئ الدول الأدبي ستقوده قريش تلك المجموعة السكّانية الّتي ستفرض لغتها على المجتمعات المجاورة لها.

وكان من أسباب هذه السيطرة اللغوية تضافر عناصر اجتماعية وتجارية وسياسية وبيئية جغرافية ، حملتها مفاهيم ثلاث : " مكّة ، قريش ، عكاظ ".

وأسفر المخاض عن لغة مثالية استعارت ما ينقصها من لغات الشعوب البعيدة* ومن لهجات الأقوام العربية المتاخمة لها ، وصارت لغة قريش قادرة على التعبير عن الأمور العادية والمفاهيم المجردة ، وعن مجمل أدب الجاهلية الرفيع...

وصارت مستقرة الأوضاع ثابتة السنن ، وهكذا دخلت العربية طور الشباب الفتي وكأنّها تترقّب الحدث العظيم2.

وكان أن توجت بتاجها الأبدي ، الذي حملته – على عظمته – قرونا ولا تزال، والذي تكفّل بحفظ شبابها ، وبصنع أسطورة حياتها.

لقد اصطفتها السماء لمخاطبة أهل الأرض من الثقلين ، لكونها لغة الروح القدس، ومناجاة الخالق سبحانه.

" واتخذت هذه الرسالة من شكلها اللغوي حجّة لنبوّة الرسول صلى الله عليه و سلم الذي اصطفاه الخالق ليبلغ عنه ، فكانت معجزته من خصائص اللغة في الرسالة وجودتها"1.

---

1 د. توفيق محمد شاهين، عوامل تنمية اللغة العربية ، ص 40

* تخيرت من ألسنة أهل اليمن وحوران والنبط والقبط والروم ومصر والعجم والسريان والحبشة ، اقترضته وحولته إلى عربي فصيح

2 ينظر: ريمون طحان...، اللغة العربية وتحديات العصر ، ص 15 وما بعدها

اتسعت ثروة هذه اللّغة ووهبها القرآن الكريم حياة جديدة ، أسفرت عن حسنها في كل بلد أشرقت فيه شمس الإسلام ، " وكأنّما تعاطت في آياته إكسير الحياة ، وسرّ البقاء ، واستمدت من كلماته شجاعة المواجهة ، وروح الثبات ، فكان القرآن الروح الّتي جعلت العربية الفصحى لغة كل العصور ، وكل ما جاءنا من تراث هذه اللّغة فإنّما مردّه إلى القرآن، الذي فجّر علومها وأطلق عبقرية أبنائها ، فبقيت العربيّة كما كانت ، راسخة القدم مبنى ومعنى ، قادرة على مواكبة الحضارة ، تأخذ من غيرها ما يلزمها ، وتعطي لغيرها ما يلزمه"2.

وغدا القرآن القطب الذي تدور حوله مختلف المجهودات الفكرية والعقائدية للمسلمين، ومنطلق تلك المجهودات وغايتها في الوقت نفسه ، وستقوم حول القرآن ومنه حلكة نشيطة تتصل بجملة من المشاكل الّتي طرحها مجيئه ، وسيكون الأصل في تبلور العديد من العلوم الإسلامية الّتي نعرفها اليوم ، خاصة ما يتّصل بلغته ، وانعكاس ذلك على العربية من تقنين وضبط ، خدمة له ، وخوفا من أن يصيبه الفساد بمفعول عوامل تاريخية باعدت بين فصاحة اللّغة وصفائها ، والأقوام الجديدة الّتي ضعفت صلتها بمعدن تلك الفصاحة3.

لا شك في أنّ هذا التنزيل الحكيم كان ذا أثر في أنّنا نرى أنفسنا اليوم ، قادرين على قراءة اللّغة الّتي كان ينشد بها (امرؤ القيس) شعره ، وفهمها مع تقادم العهد بيننا وبينه ، وتلك ميزة انفرد بها لسان العرب عمّا سواه.

وكان للقرآن الكريم ، الفضل العظيم على العربية من الناحية اللغوية بزيادة مفرداتها ، أمّا من النّاحية الأدبية فقد أفاض عليها جمالا فنيّا ، وبيانا سهلا مؤثّرا ، وأمّا من الناحية العلمية فقد أحدث فيها علوما لسانية وبيانية وتشريعيّة ، من نحو وصرف وبلاغة وفقه وأصول4.

ثانيا : في خصائص العربية إجمالا

1 حمادي صمود،التفكير البلاغي عند العرب ، ص 33

2 د. عبد الصبور شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية ، ص 44

3 ينظر : حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب ، ص 33

4 ينظر :محمد عطية الإبراشي، الآداب الساميّة ، ص 137

قرّر علماؤنا القدامى ، أنّ لسان العرب جواد جموح ، بل ظبية شاردة لو أفنى الواحد منّا عمره في تحصيله ما أحاط به كاملا.

ليس هذا ضربا من التفخيم ، إنّما واقع الحال يؤكّد هذه الحقيقة. كتب أحد المبشرين بمصر عام 1894م :

" إنّي أفضل أن أسير على قدمي من الإسكندرية إلى رأس الرجاء الصالح ، وأجوب إفريقية ماشيا على قدميّ ، من أن أتعهّد مرّة واحدة بالسيطرة على اللغة العربية "1.

ونحن إذ نسوق ما نسوق ، تسليما منذ البدء بأن الآتي لا يعدو أن يكون مجرّد قراءة نسبيّة لأبرز خصائص اللغة العربيّة ، ولا شكّ في أنّنا سنخلّف الكثير ممّا لا يمكن حصره في هذا المقام.

تمتاز اللغات الساميّة عن سائر لغات البشر ، بوفرة كلماتها ، واطّراد القياس في أبنيتها، وتنوّع أساليبها ، وعذوبة منطقها ، ووضوح مخارج حروفها ، وتفضلها اللغة العربية في ذلك كلّه ، لتصوّنها زمن جاهليتها قرونا سحيقة في شبه جزيرة العرب وتقدّمها في الطريقة النظرية الّتي نشأت عليها.

وجمع العرب بين الواقعية الحسية والمثالية المعنوية في لغتهم ، ومثاليتهم ليست خياليّة بل هي امتداد للواقعيّة وتسام بها ، ولذا لم تتنافيا.

وإذا كان التجريد دليل ارتقاء العقل ، فإنّنا نجد العربية عبّرت عن الماديات بالمعنويات:

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾*

﴿ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ **

---

[1] محمد عطية الإبراشي، الآداب الساميّة ، ص 168

* الحاقة.../11

** الكهف.../33

﴿ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ *

هذا كلّه خيّل لكثير من العلماء الباحثين أنّها لغة وليدة مواضعة واصطلاح متعمد من حكماء أهلها ، لا لأنّها لغة فطرية تدريجية.

وذهب كثير من علماء عصرنا الغربيين والشرقيين إلى أنّ العربية هي أصل اللغات الساميّة[1].

الإعراب والإيجاز وكثرة المترادفات ودقّة التعبير ، من أخص خصائص العربية الّتي تتميّز بمطواعيتها الفائقة وقدراتها الفريدة ، ففيها من المرونة والسيطرة على المعاني بصيغها وحركاتها وغزارة مادتها ، ما يجعلها من أدقّ اللغات وأصلحها للتعبير عن المفاهيم المختلفة. على هذا تتعدّد عناصر الجمال في اللغة العربية بين تراكيبها البليغة ، وحروفها المرتبة وقواعدها المنطقية ، ولثروتها اللفظية أثر في جمالها فهي غنية بمفرداتها الأصلية ، لم تتأثر بالدخيل كغيرها من اللغات ، وأهمّ عناصر جمالها هو من غير شك أدب لغتها العظيم ، فبالشعر وحده يستطيع العرب أن يتحدوا بلاغات العالم كلّه ، وفي نصوص هذه اللغة القديمة ، أمثلة رائعة ونماذج بارعة توقف القارئ على شيء كثير من جمالها في التعبير ، ودقتها في الإفصاح عن خلجات النفوس ، وتصوير العواطف الإنسانية.

هذا واللسان العربي – بفضل بنيانه الاشتقاقي – ما زال محتفظا بنشأته عن الصور الصوتية البدائية ، وبتحوّل كافة كلماته عن هذه الصور المقتبسة مباشرة عن الطبيعة ، وهو يساعد بنمطه الخاص على تمييز الكلمات الدخيلة من الأصيلة ، وعلى التحرر بذلك من الركاكة والهجانة ، فقد استقبحوا في كلامهم التنافر في الكلمات وضعف التأليف في الكلام، كما أنّهم استهجنوا التعقيد اللفظي والمعنوي في محادثاتهم وكتاباتهم[2].

* الحاقة../6.

[1] ينظر :الإبراشي، الآداب الساميّة ، ص 114 ، ود. محمد شاهين، عوامل تنمية اللغة العربية ، ص 40

[2] ينظر : الإسلام اليوم، عالمية اللغة العربية ، ص 161 ، ود. علي أسعد...، جذور العربية فروع الحياة ،ص 35

فانسابت لهم لغة موسيقية الألفاظ ، دقيقة الأوزان ، جميلة التعبير ساحرة الأداء، يتجلى سرّ جمالها في هذا الفنّ القولي الذي وعته ، وذلك المجهود الأدبي الذي خلفته، ما تمتاز بما فيها من طرق الإبانة المختلفة الّتي تملك القلب والحس والسمع1.

لم تتجلّ العبقرية العربية في منطوق الكلام وحسب ، بل تجاوزته إلى رسم الكتابة، لتكون أروع نمط زخرفي تخيله الإنسان ، إنّها الوحيدة الّتي تكتسي روحا ملائما لصوت الإنسان عند التعبير ، كما تبدو هذه الحروف كأنّما هي اختزال لأعمق تقلبات القلب واختلاجات الضمير2.

لم تظفر لغة على هذه الأرض بعناية في روايتها ، قدر ما ظفرت به اللغة العربية ، فقد عكف العلماء والرواة على جمعها من حصيلة النصوص الموثقة شعرا ونثرا ، ومن أفواه الأعراب الفصحاء في أنحاء الجزيرة العربية ، على ترامي أطرافها ، وقد بالغوا في هذا الجمع حتّى أخذوه عن الصبيان ، وعن المجانين. قال (الأصمعي) : " سمعت صبية بحمى ضريّة يتراجزون ، فوقفت وصدوني عن حاجتي، وأقبلت أكتب ما أسمع ، إذ أقبل شيخ فقال : أتكتب كلام هؤلاء الأقزام الأدناع ؟"3.

هذه إحدى الخواص الّتي يرجع الفضل في تحلي العربية بها ، إلى القرآن الكريم. أضف إليها خاصية التواصل ؛ فقد تهادت إلينا هذه اللغة معبرة عن تاريخ بعيد ، وتراث عريق ، ناطقة على ألسنتنا ، كما كانت تنطق على ألسنة سلفنا ، دون أن تسترغب أو تستعجم؛ فأصواتها وصيغها وتراكيبها هي كما كانت ، لم يصبها مكروه ، رغم تطاول القرون ، وتتابع الأجيال ، وهو أمر نادر الحدوث في عالم اللغات ، لم يسجله التاريخ إلاّ للّغة العربية ، الّتي نقرأ نصوصها القديمة فلا نحس بقدمها ، بل إنّنا نأنس بها ، ونتلذذ بتكرارها وتمثلها واستخدامها في أحايين كثيرة ، على حين أنّ نصوص اللغات الأخرى تستغلق على الفهم ، إذا مضى على إنشائها قرنان ، بل قرن واحد ، فتصبح من مخلفات التاريخ ، وتوضع لتفسيرها المعاجم الكلاسيكية ، فأمّا إذا كانت بنت ثلاثة أو أربعة قرون ، فإنّها تعدّ من مقتنيات المتاحف.

---

[1] ينظر :الإبراشي، الآداب الساميّة ، ص 163
[2] ينظر : الحج إلى بيت الله الحرام ، لايتيان ديني نقلا عن: د. محمد بن عبد الكريم، لغة كل أمّة روح ثقافتها ، ص 38
[3] السيوطي، المزهر : 140/1

ظاهرة التواصل — إذن — من خصائص العربية الّتي لا تشاركها فيها لغة أخرى ، حيث تنفرد بالاستمرار والترابط والتأثير النفسي والفني عند مختلف الأجيال ، دون الاحتياج إلى مترجم بينهما ، منذ تكامل نضجها قبل الإسلام ، وحتّى الآن ، وهذا يعني انعدام الهوّة اللغوية على غير ما هو في اللغات الأخرى ، الّتي تتغيّر مع تغيّر البيئات والأجيال والعصور[1].

أخيرا؛ نخلص إلى أنّ اللغة العربية من أوسع اللغات وأغناها ، وأدقها تصويرا، وأوسعها مذهبا ، وقد أقرّ المستشرق (ماسينيوس) بأنّها تفضل زميلاتها الكبيرتين ، العبرية والسريانية ، لثروة المعاني الكامنة في كل أصل ثلاثي من أصولها ، ومن قدرتها في القبض على الامتدادات المعنوية المشتركة أسسها ، وأخيرا من صقلها للمعاني والصعود بها في مدارج التقدم[2].

وما دام علماء اللغة يقسمون اللغات على أساس قوانين التطور والارتقاء في قواعد الصرف ، والنظم ، والتركيب ، فقد رأوا أنّ اللغة العربية من خلال هذه المعايير ، هي أرقى اللغات السامية مبنى ومعنى واشتقاقا وتركيبا ، وأنّها من أرقى لغات العالم[3].

ما كان لنا أن نحوم حول اللغة العربية ، دون أن تغرينا بولوج أبوابها في لهفة واندفاع ، ولأنّ الكلام عنها ينبغي أن يكون مؤسسا ومسؤولا ، فإنّه لا بدّ من التفصيل في خصائصها أو بالأحرى في علومها الّتي سمحت لبنائها بالصمود.

ويمكننا من كل ما سبق ، تحصيل أربعة عناصر ، هي دعائم العربية ، تتسلسل كالآتي:

أ- الأصوات : وتلك عناصر علم الصوت.

ب- الصيغ : وتلك عناصر علم الصرف.

ج- التراكيب : وتلك عناصر علم النحو.

د- المفردات ومعانيها : وتلك عناصر علم المعاجم والدلالة.

هذه هي معاقل العربية ، الّتي وقتها نوائب الزمان ، سنخوض فيها ، كل معقل على حدة.

---

[1] ينظر : عبد الصبور شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية ، ص 44 ، وعامية اللغة العربية ، ص 162

[2] نقلا عن: د. توفيق شاهين، عوامل تنمية اللغة العربية ، ص 06

[3] المرجع نفسه ، ص 06

ثالثا: دعائم العربية

مقاربة للبنية الداخلية

1- الأصوات :

عرّف (ابن جنّي) اللغة "بأنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"1. لأنّ الصوت أصغر وحدة لغوية تبنى عليها باقي الوحدات ، ولأنّ الألفاظ جسوم تصبح صورا مرئية عندما تصور بالحروف2.

هذه الأصوات المحدودة ، الناشئة عن أعضاء النطق المعدودة ، المتمثلة في الحنجرة، والحلق ، واللسان ، والشفتين ، والأنف – هذا الكيان الضئيل المتماثل بين أفراد البشر ، هو الذي أنتج هذا الوجود اللغوي الهائل المتنوع ، الذي تعبر عنه ثلاثة آلاف لغة موجودة ، عدا تلك الّتي بادت وهي بضعة آلاف أيضا.

ثلاثة آلاف لغة ، بكل ما تحتوي من مفردات وتعابير ، وكتب وتراث ، وواقع ناطق من خلال أجهزة الإعلام المختلفة ، إنّه وجود لغوي هائل لا حدود لامتداده ، ولا يحيط به إلاّ علم الله العظيم3.

" وتستمد اللغة العربية –كسائر اللغات – عناصرها الأصواتية من شبكة عالمية من الفونيمات والمقاطع والوصلات الصوتية والتنبير والنبرة واللحن وتنغيم الجملة ، وتتحقق العناصر الأصواتية في اللغة العربية بواسطة عادات وأعراف نطقية شائعة وثابتة في المجموعة البشرية العربية ، وهي تدخل في لحمة تنظيم اللسان ، ولا يتوقع أن تختلف كبير الاختلاف بين لهجة عربية وشقيقة لها ، وهذا النمط الصوتي خاص بالعرب والخروج عنه يوقع المتلبس به في اللكنة "4.

---

[1] ابن جني، الخصائص 33/1

[2] د. علي أسعد...، جذور العربية فروع الحياة ، ص 52

[3] د. عبد الصبور شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية ، ص 40

[4] ريمون طحان...، اللغة العربية وتحديات العصر ، ص 38

" إنّ اللغة في الواقع تعبير مدهش عن قدرة الله الّتي لا تتناهى ، فنواة اللغة هي : صوت الإنسان ، وأعضاؤه النطقية ، والصوت مساحته محدودة ، وإمكانات أعضاء النطق محدودة أيضا فهي ، تنتج عددا معينا من الأصوات نعبر عنه بالحروف الهجائية ، وهو في اللغة العربية تسعة وعشرون حرفا (أي رمزا مكتوبا) ، وإن كان واقع النطق ينتج في العربية ما يزيد على أربعين صوتا ، وهذا العدد يقلّ في اللغة الإنجليزية والفرنسية، الّتي لا تزيد أبجديتها الكتابية على ستّة وعشرين رمزا كتابيا ، وأكثر أصواتها مشترك بين لغات أوروبية كثيرة ، إلى جانب أنّ أكثر هذه الأصوات موجود في الأبجدية العربية "[1].

حروف المعجم – إذن – تسعة وعشرون حرفا ، أوّلها الألف وآخرها الياء "وقد تبلغ الحروف خمسة وثلاثين حرفا بفروع حسنة تلحقها ، يؤخذ بها القرآن وفصيح الكلام ، وهي النون الخفيفة ، والهمزة المخففة ، وألف التفخيم ، وألف الإمالة ، والشين الّتي كالجيم ، والصادم الّتي كالزاي... وقد تبلغ ثلاثة وأربعين حرفا بفروع غير مستحسنة كالكاف الّتي كالجيم ، والطاء الّتي كالثاء ، والباء الّتي كالفاء "[2].

تتسم الأصوات العربية على مرّ العصور ، ويتميز مدرجها الصوتي بالتوازن والانسجام والسعة.

وقد تحدّث المستشرق الألماني (ماسينيوس) عن سعة هذا المدرج وتوزيع الحروف العربية عليه ، توزيعا عادلا ، من أقصى الحلق إلى ما بعد الشفتين ، وقد أدّى ذلك إلى عذوبة موسيقية وانسجام صوتي ، وتوازن ، وثبوت لهذه الأصوات ، توفير للجهد ودلالة على الاتصال بين أجيال الأمة العربية ، وتعبير بالتالي عن الثبات والخلود[3].

أفاض علماؤنا في دراسة هذه المادة اللغوية الصوتية ، فعرفوا لكل صوت صفة ومخرجا، مثلما عرفوا له دلالة وإيحاء ، فتنبهوا إلى أنّ : " من الحروف ما يتكرر ويكثر في الكلام استعماله ، وهو (ا ل م ه و ي ن) ، ومنها ما يكون تكراره دون ذلك ، وهو (ر غ ف ت ب ك د س ق ح ج) ، ومنها ما يكون تكراره أقل من ذلك ، وهو (ظ غ ط ز ث خ ض ش ص د).

[1] المرجع نفسه ، ص 40

[2] الإشبيلي، الممتع في التصريف ، ص 665 وما بعدها

[3] ينظر : د. توفيق محمد شاهين، عوامل تنمية اللغة العربية ، ص 05 وما بعدها

ومن الحروف ما لا يخلو منه أكثر الكلمات ، حتّى قالوا : أنّ كل كلمة ثلاثية فصاعدا لا يكون فيها حرف أو حرفان منها ، فليست بعربية ، وهي ستة أحرف :

(ر ب م ن ل ف) ومنها ما لا يتركب بعضه مع بعض ، إذا اجتمع في كلمة ، إلاّ أن يقدم ولا يجتمع ، إذا تأخر ، وهو : (ع ه) فإنّ العين إذا تقدمت تركبت ، وإذا تأخرت لا تتركب ، ومنها ما لا يتركب ، إذا تقدم ، ويتركب إذا تأخر ، وهو (ضج)، فإنّ الضاد إذا تقدمت تركبت ، وإذا تأخرت لا تتركب في أصل العربية ، ومنها ما لا يتركب بعضه مع بعض لا إن تقدم ولا إن تأخر، وهو(س ث ض ز ظ ص) "[1].

تتوزع الأصوات العربية على أعضاء النطق ابتداء من الحنجرة : (ء ه) ، ثمّ أقصى الحلق : (ع ح) ، ثمّ أدنى الحلق : (غ خ) ، ثمّ اللهات : (ق) ، ثمّ الطبق : (ك) ، ثمّ سقف الحنك : (ج ش ي) ، ثمّ اللثة : (س ز ص د ط ض ل ن ر) ، ثمّ الأسنان: (ث ذ ظ)، ثمّ الشفة السفلى مع الأسنان العليا: (ف)، ثمّ الشفتان : (م ب و).

فأصوات العربية الفصحى موزعة كما نرى على عشرة مخارج رئيسة، وفي العربية ثلاث حركات هي : الفتحة والكسرة والضمة ، وقد تكون قصارا كما في: كتب ، وقد تستعمل طوالا كما في كاتب.

ولم تخف على علمائنا القدامى ، العناصر المكونة للصوت وهي :

1- الهواء، وطريقه أو مجراه هو الفم غالبا ، والألف أحيانا.

2- التردد الحنجري في المجهور ، وعدمه في المهموس.

3- المخرج ، وهو نقطة التقاء عضوي النطق.

4- درجة اتصال طرفي المخرج ، أو درجة التوتر في المخرج.

وتبعا لهذه التقسيمات جاء وصفهم للأصوات[2] :

" من الحروف ، حروف تجري على النفس ، وهي الّتي تسمى الرخوة ، ومنها حروف تمنع النفس ، وهي الّتي تسمّى الشديدة ، ومنها حروف إذا رددتها في اللسان جرى معها الصوت ،

[1] ابن منظور، لسان العرب ، ص 14

[2] ينظر : د. عبد الصبور شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية ، ص 46 وما بعدها

وهي المهموسة ، ومنها حروف إذا رددتها ارتدع الصوت فيها ، وهي المجهورة ، ومنها حروف تسمع في الوقف عندها نبرة بعدها ، وهي حروف القلقلة ، وذلك لأنّها ضغطت مواضعها ، ومنها المطبقة ، والمنفتحة "1.

لاحظ علماؤنا مناسبة حروف العربية لمعانيها ، ولمحوا في الحرف العربي قيمة تعبيرية موحية ، إذ لم يعنهم من كل حرف أنّه صوت وإنّما عناهم من صوت هذا الحرف أنّه معبر عن غرض ، وأنّ الكلمة العربية مركبة ، من هذه المادة الصوتية الّتي يمكن حل أجزائها إلى مجموعة أحرف دالة معبرة ، يستقل كل منها ببيان معنى خاص ، وكل حرف له ظل وإشعاع، إذ كان لكل صدى وإيقاع.

ولنا مثال بين الصاد والسين في : صَعِدَ وسَعِدَ - لأنّها أقوى – لما فيه أثر مشاهد يرى، وهو الصعود في الجبل والحائط ، ونحو ذلك ، وجعلوا السين – لضعفها – لما لا يظهر ولا يشاهد حسّا ، إلاّ أنّه مع ذلك فيه صعود الجد ، لا صعود الجسم ، فجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس وإن لم تره العين.

ومن ذلك قولهم : خَضِمَ وقَضِمَ ، فالخضم لأكل الرطب والقضم للصلب واليابس.

كذلك بين النضح والنضخ ، وكلاهما للماء ونحوه ، فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف ، والخاء لغلظها لما هو أقوى2.

فإذا ما اختلطت الأحرف وتمازجت ، حدث عن تقاليبها الستة المحتملة ثروة لغوية هائلة لا يكاد يحاط بها.

إنّ الجانب الصوتي هو أكثر جوانب اللغة تعرضا للتغيير والانحراف والتشويه، هذا كله منعه القرآن الكريم عن العربية بتوفيره قاعدة أدائية ثابتة يعود الفضل لها في ثبات الأصوات العربية على نحو ما هي عليه3.

2- الصرف :

[1] المبرد، المقتضب ، 94/1

[2] ينظر :د. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة ، ص 142 وما بعدها

3 ينظر : د. عبد الصبور شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية ، ص 45

علم من أهم علوم العربية ، والذي يبيّن أهميته ، احتياج جميع المشتغلين بالعربية إليه أيما حاجة ، لأنّه ميزانها ، فاللغة يؤخذ جزء كبير منها بالقياس ، ولا يعرف القياس إلاّ كل من درس التصريف 1.

" وكان ينبغي أن يقدم علم التصريف على غيره من علوم العربية ، إذ هو معرفة ذوات الكلم في أنفسها من غير تركيب. ومعرفة الشيء في نفسه قبل أن يتركب ينبغي أن تكون مقدمة على معرفة أحواله الّتي تكون له بعد التركيب ، إلاّ أنّه أخّر للطفه ودقته، فجعل ما قدم عليه من ذكر العوامل توطئة له ، حتّى لا يصل إليه الطالب إلاّ وقد تدرب وارتاض القياس"2.

يمتد ثراء اللغة العربية إلى بنى الصرف ، فنجدها غنية في صيغ قواعدها ، وإنّ نظرة واحدة إلى صيغ جمع التكسير ، وصيغ المصدر ، واسم المصدر ، تدلنا على ثروة لفظية لا تحد.

وأصول الكلمات في اللغة العربية ثلاثة: فاء الكلمة، وعينها، ولامها، وهذا أصل الموازين الصرفية فيها ، وفي هذه الموازين كثرتها وتنوعها ما يدل على غنى هذه اللغة3.

لا خلاف في كون الصرف علما يعرّف بأصل الكلمة وما فيها من حروف مزيدة، وكيف يتعامل معها جمعا وتصغيرا ونسبة وإعلالا وإدغاما واشتقاقا.

فإنّ من فاته علمه فاته المعظم ، لأنّا نقول " وَجَدَ " وهي كلمة مبهمة ، فإذا صرفنا أفصحت فقلنا في المال «وُجْداً» وفي الضالة «وِجْدَاناً» ، وفي الغضب «مَوْجِدَةً» وفي الحزن «وَجْداً». وقال الله جل ثناؤه : ﴿ **وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا** ﴾*. وقال :
﴿ **وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ **.

كيف تحوّل المعنى بالتصريف من العدل إلى الجور ، ويكون ذلك في الأسماء ، والأفعال فيقولون للطريقة في الرمل " خِبَّة " وللأرض المخصبة والمجدبة " خُبَّة "4.

---

1 راجي الأسمر، المعجم المفصل في علم الصرف ، ص 05
2 الإشبيلي، الممتع في التصريف ، ص 30
3 ينظر : الإبراشي، الآداب الساميّة ، ص 134 – 169
* الجن15/72.
** الحجرات.../9
4 ابن فارس، الصاحبي ، ص 197 وما بعدها

لذلك احتاج أهل العربية إلى هذا العلم ، كونه ميزانها الذي يعرف بأصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها ، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلاّ به ، وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس ، ولا يوصل إلى ذلك إلاّ من طريق التصريف1.

قال (ابن جني) : " فلفظة "الغنطنط" طويلة اللفظ لطول معناها " البحتر " قصيرة مجتمعة ، لأنّها تدل على القصير المجتمع الخلق. وألفاظ " الدوران " و"الثوران" و"الغليان" تتابعت حروفها ، لتتابع حركات معانيها. وألفاظ "الضرّاب" و"الأفاك" تكرار الحروف المضعفة فيها ، يدل على تكرار المعاني. وألفاظ "الغضبان" و"الحيران" يتسع النطق بها ، ويمتلئ الفم بلفظها ، لامتلاء حاملها من هذه المعاني ، فالغضبان الممتلئ غضبا ، والذي اتسع غضبه حتّى ملأ قلبه وجوارحه. وألفاظ : " خشن " و"اخشوشن" و"أعشب" و"اعشوشب" فإنّ كل لفظة تزيد على أختها في الحروف أقوى منها في المعنى. قال : (الخليل) : " كأنّهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداء فقالوا « صر » وتوهموا البازي تقطيعا ، فقالوا «صرصر»2.

إذن الصيغ في اللغة العربية لم توضع خبط عشواء ، إنّما جاءت وليدة دقة ملاحظة ورهافة حسّ ، ورفعة ذوق ، وشدّة إحساس يربط العربي بلغته.

تتجمع ألفاظ العربية في مجموعات ، كل مجموعة منها تشترك مفرداتها في حروف ثلاثة ، وتشترك في معنى عام ، بينما تتميز بصيغتها ومبناها ، مع انفرادها بمعنى خاص بها ناشئ عن صيغتها... ولكن مما ابتعدت بصيغتها فهي تحمل طابع نسبها في الحروف الثلاثة الّتي تدور معها أنّى دارت ، وهذه مزية في اللغة العربية ليست لسواها من اللغات3.

يعطي الصرف مساحة واسعة مترامية الأطراف تسمح بتوالد الوحدات الجديدة ذات الصيغ الصرفية ، والمشهور منها :

أ- الاشتقاق : صياغة وحدة ذات بنية صرفية بسيطة من أصل ما ، جذرا كان أم جذعا.

ب- النحت : صياغة وحدة بسيطة من وحدتين بسيطتين ، يضمهما إلى بعض بحذف أو بغير حذف.

1 ينظر : ابن جني، المنصف 2/1

2 ينظر :ابن جني، الخصائص ، 152/2

3 د. توفيق محمد شاهين، عوامل تنمية اللغة العربية ، ص 87

ج- التركيب : بجمع وحدتين بسيطتين أو أكثر إمّا جمعا مزجيا ، أو جمعا بالإضافة ، أو جمعا بالإسناد ، لتحصيل وحدة معقدة.

د- المعجمة : توليد وحدة جديدة من تعبير أو جملة ، أي من تركيب معقد ، بالاختزال[1].

هذا كله يفسح أمام ألفاظ العربية أفقا رحبا للتجدد والإنسال المصطلحي ، في عالم يشهد حركة مجنونة للأسماء والمسميات.

هذه اللغة بجذورها الّتي تزيد على الستة آلاف ، لن تعدم – مطلقا – فيضا من الألفاظ لتغطية مختلف المصطلحات[2].

والعربية لغة اشتقاقية ، يتلقاها المتعلم جذورا تلد الصيغ ، مجردة ومزيدة ، وعلى هذا الأساس تتكون سليقته اللغوية ، فهو ليس مضطرا إلى أن يحفظ كل الكلمات ليتمكن من استعمالها ، كما هي الحال في اللغات اللاتينية ، بل يكفيه أن يعرف قياسها، وانتماءها إلى جذرها ، ليمكنه استدعاؤها عند اللزوم فتقفز إلى لسانه وإلى بنانه[3].

[1] ينظر : ابراهيم بن مراد، توليد المصطلح العلمي العربي الحديث ، ص 36 وما بعدها
[2] ينظر : أحمد شفيق الخطيب، المواصفات المصطلحية ، ص 19
[3] د. عبد الصبور شلداهين، العربية لغة العلوم والتقنية ، ص 26

3- النحو :

من أسرار جمال العربية ، هذا النحو ، أو تلك القطعة الدقيقة من التفكير العربي ، فعلم النحو دستور يحكم علاقة الألفاظ ببعضها.

وإذا تأملنا قواعده في اللغة العربية ، وجدناها منظمة ، مرتبة ، منطقية ، فلكل أداة شرط جواب ، ولكل فعل فاعل ، ولكل مبتدأ خبر ، وللفاعل موضع خاص في الجمل ، وللمفعول به موضع معين ، والفاعل مرفوع والمفعول به منصوب ، والمضاف مجرور 1.

جعل النحو ، لمعرفة أحوال الكلم المتنقلة2.

قال (أبو إسحاق الكندي) (لأبي العباس المبرّد) :

" إنّي أجد في كلام العرب حشوا ، تقولون : عبد الله قائم ، ثمّ تقولون : إنّ عبد الله قائم ، ثمّ تقولون ، إنّ عبد الله لقائم ، والمعنى واحد ؟! ".

فأجابه المبرّد بأنّ المعاني مختلفة ، فقولهم : عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم: إنّ عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : إنّ عبد الله لقائم ، جواب عن إنكار منكر قيامه ، فقد تفاوتت المعاني مع تغيير يسير في تركيب اللفظ "3.

أبرز سمة في النحو العربي سمة الإعراب ، الذي يعدّ من خصائص العربية الّتي لم تتكامل في أي لغة أخرى رغم وجود لغات كثيرة تعتمده ، لكن الدارسين وجدوا أنّه لا يبلغ من الدقة والاطراد مثل الذي في العربية4.

و"به تميز المعاني ، ويوقف عل أغراض المتكلمين ، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها : فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني ، يقولون " مِفْتَح " للآلة الّتي يفتح بها و"مَفْتَح" لموضع الفتح... وتقول " كم رجلاً رأيتَ ؟ " في الاستخبار ، وكم رجلٍ رأيت ، في الخبر يراد به التكثير ، و"هنّ حواجّ بيت الله " إذا كنّ حججن. و"حواجُّ بيت الله" إذا أردن الحجّ. ومن

1 ينظر : الإبراشي، الآداب السامية ، ص 135 و166
2 ابن جني، المنصف 40/1
3 د.محمد بن عبد الكريم الجزائرس، لغة كل أمّة روح ثقافتها ، ص 81
4 عالمية اللغة العربية ، ص 161

ذلك : " جاء الشّتاء والحطب " لم يرد أنّ الحطب جاء ، إنّما أراد الحاجة إليه ، فإن أراد مجيئها قال " والحطبُ " وهذا دليل على ما وراءه "1.

لما أصاب العربية حظ من التطور أضحى الإعراب أقوى عناصرها ، وأبرز خصائصها، بل سرّ جمالها ، وأمست قوانينه وضوابطه هي العاصمة من الزلل ، المعوضة عن السليقة ، لأنّ الناس أدركوا حين بدأ اختلاطهم بالأعجام أنّهم لو لا خلاطهم لهم لما لحنوا في نطق ولا شذوا في تعبير.

من هنا يتجلّى فضل هذا العلم في حفظ كيان العربية من الانحراف ، والحيلولة دونها ودون أدران العجمة.

4- المعجمية والدلالة :

الكلمة العربية مؤلفة من صورة صوتية ، ومن خيال مرئي ، ومن معنى هو قوام تآلفها... والخيال المرئي هو خيال التفتح من الداخل ، الخيال الموجود في الكلمات ذات النشأة المشتركة... والمعنى هو الحقيقة المتجلية من صميم النفس مستضيئة بنور ذاتها... وذلك ما يجعل الكلمة العربية ذات معالم واضحة لا تقبل الالتباس بغيرها ، وذلك ما يجعل لكل مفهوم صورة حسية هي منه بمثابة التعريف بالإشارة.

فالذكاء مثلا صورة حيّة هي ذكاء الشمس ، ولمعة الذكاء من النفس بمثابة الشمس من الأشياء2.

عرفت العربية –كسائر اللغات – □بلى مفردات ومدلولات ، وتولد أخرى لسد الخانات الفارغة في التعبير عمّا استجدّ ، وهذه الخانات نوعان :

أ- طبيعية : يحدثها التحوّل الاجتماعي أو الذهني (ظهور العلوم والحرف وأنماط السلوك، والعيش الجديد).

---

[1] ابن فارس، الصاحبي ، ص 196 وما بعدها

[2] د.علي أسعد...، جذور العربية فروع الحياة ، ص 32

ب- اضطرارية : تنشأ عن تأثر الثقافات والحضارات ببعضها مما ينعكس على اللغة، فتؤثر لغة في أخرى ، إذ لكل لغة خصوصيات معجمية دالة على خصوصيات في واقع الجماعة الّتي تتكلمها ، وتقابل تلك الخصوصيات — في اللغات الأخرى — الخانات الفارغة.

للعربية أصناف من التوليد منها : التوليد الدلالي : بإحداث مدلولات جديدة في اللغة تحملها دوال موجودة فيها ، فهو ليس كالتوليد الصرفي ينتج دوال جديدة ، بل هو توليد لمدلولات دون الدوال.

وهذا الضرب من التوليد نوعان1 :

أ- المجاز : نقل وحدة معجمية من دلالتها الأصلية إلى دلالة جديدة. والواقع أنّ العرب قد أبدعوا في هذا المجال منذ بداوتهم الجاهلية ، فهم مثلا نقلوا مفهوم الفصاحة ميزة للبن الذي أزيل رغوه وبقي خالصه ، إلى مفهوم حسن الكلام وجودته، ونقلوا مفهوم الشك من الوخز بشيء دقيق إلى مفهوم التردد والحيرة مما ألم النفس، ونقلوا مفهوم الإبهام من الظلام الكثيف إلى مفهوم الغموض واشتباه المقصود ، ونقلوا مفهوم المجد من امتلاء بطن الدابة بالعلف إلى معنى امتلاء الشخص أو الجماعة بالمعاني النبيلة.

ب- الترجمة الحرفية : أو النسخ وهو ضرب من الاقتراب الدلالي ، ينتقل فيه المدلول دون الدال من مصدر مقرضة إلى لغة مورد مقترضة.

إذن هو إسناد مدلول غير أصلي إلى دال من دوال اللغة المقترضة.

ومن الاقتراض ما هو بذخي ، يحدثه الأفراد عفويا ، نتيجة الإعجاب بأنماط ثقافية وحضارية أجنبية.والمقترضات نوعان :

أ- المعرب : ما أدمج في نظام اللغة وأخضع لمقاييسها.

ب- الدخيل : ما بقي مستعصيا على مقاييس اللغة ولم يدمج في نظامها2 .

خلاصة القول بعد هذه الجولة في صروح العربية ، أنّ هذه اللغة قد حافظت على مظاهر حياتها ، كالإعراب الكامل ، ومناسبة حروفها لمعانيها ، وثبات أصواتها مع سعة مدرجها ،

---

1 ينظر : ابراهيم بن مراد، توليد المصطلح العلمي العربي الحديث ، ص 32. وأحمد الخطيب، المواصفات المصطلحية،ص 17

2 ينظر : ابراهيم بن مراد، توليد المصطلح العلمي العربي الحديث ، ص 38

وتنوع صرفها واشتقاقها ، وتعدّد أبنيتها وصيغها ، وكثرة مصادرها وجموعها، وغنى مفرداتها بالاشتراك والترادف والتضاد ، واستعدادها الذاتي للنحت والتوليد والتعريب[1].

[1] د. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة ، ص 116

الفصل الرابع

العربية:

حاضر الأزمة..مستقبل الحل

اللغة وعاء الفكر ، وعامل تكوين الوعي ، وأداة التفكير لحمة التعبير ، فيها "تكثف الرموز وتستنبت الخبرات ، ومنها تنداح دوائر الإيحاء وينبت ريش لأجنحة الخيال، ويمتد التخييل بلا ضفاف ، وبها ينشط العقل ، وتذكى المشاعر ، وتجلى الرؤى، ويكتنز الفعل الذي تفجّر طاقته الكلمات ، فيتدفق عطاء أو سلوكا مبدعا في شتى مظاهر الحياة "[1].

تبارت الأمم الّتي تنشد التقدم ، وتتسابق في صعود معارج الارتقاء ، في العناية بلغتها، فأولتها اهتمامها ، وبالغت في رعايتها ، وحرصت على سلامتها ، وجهدت لتنميتها ، وتفننت في إبداع الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية وسواها الّتي تؤدي إلى إغناء اللغة وإحسان التعبير بها.

حيوية الحدث الإنساني والفعل اللغوي تذهب إلى عدم تصور الإنسان من خارج اللغة* ، " فهو إذن (في) اللغة بوصفه ذلك الكائن اللغوي ، وبصفته هذه يكون فاعلا وموجبا ، ويرسل ويستقبل ويتفاعل "[2].

هكذا تغدو اللغة نعمة من أخطر النعم**.

لم تكن الأمّة العربية ، في تعاطيها مع اللغة ، استثناء من القاعدة ، بل لقد أدركت منذ بدء صناعة تاريخها حقيقة اللغة إدراكا واعيا ، وثبت عندها أنّ اللغة هي الدعامة الّتي يرتفع عليها صرحها الثقافي والحضاري ، بل كانت العربية عند أهلها " عامل وحدة ، ومقوما رئيسيا من مقومات شخصية الأمّة ، وحاملة رأس العقيدة ومتنها وحواشيها ، ونواة الارتكاز في الأصالة والتأصيل والتواصل الواعي لذاته ولأهدافه وأساليبه "[3].

---

[1] د. علي عقلة عرسان، الفصحى والعامية ولغة الحوار المسرحي ، ص 77

* لقد أخذ الجاحظ وغيره من أسلافنا بحد أرسطو وجعلوا اللغة معادلا إنسانيا (فمن كان في المنطق أعلى رتبة كان بالإنسانية أولى). انظر: البيان والتبيين ، ص 102.

[2] د. عبدالله الغذامي، الإنسان بوصفه لغة ، ص 59

** القول للشاعر هيلدرلن.

[3] د. علي عقلة عرسان، الفصحى والعامية ولغة الحوار المسرحي ، ص 77 – 78

في الزمن الأوّل ، استجابت اللغة لما يراد منها ، واستوعبت أنواع الثقافات والعلوم ، ولا عجب ، " فقد عرفت العربية بسعتها وثرائها وطواعيتها ، وما تملك من وسائل النمو والتطور بالاشتقاق والمجاز والقياس والنحت والتعريب وأشباهها ، وتوالى العلماء يصححون ويحررون ، حتّى استقامت لهم لغة العلم ، ووارتهم المصطلحات1.

هذا عن اللغة ، أمّا أبناؤها فقد تجاوبوا مع معطيات الزمن ومتطلباته ، ومع ما يقتضيه التواصل مع الأمم والثقافات ، " وتجلت عبقرية العربية في قيادة موكب الحضارة والإنسانية في شتّى الميادين على مدى القرون. أخذت اللغة بالمولّد من اللفظ والمعنى ، واقترضت كلمات وعاشت حالة المثاقفة الصحيحة بثقة وسلامة وصحّة مناخ وتوجه وأهداف "2.

ثمّ جاء على أمّتنا زمن تراجعت فيه صولتها ، وتدنى مستوى ثقافتها ومخزونها المعرفي ، وتوقفت لغتها عن النمو والتطور ، وغزتها اللغات الغربية عنها. " إنّ اللغة صورة الأمّة تنمو وتتفتح وتزدهر في إبان نهضتها ، وتجمد وتذوى وتتوقف فيها الحياة في الأيام خمولها. إنّها الاستجابة الصادقة لحركة الأمّة ونشاطها ، تتسع وتغني حين يراد منها التعبير عن الأفكار والمعاني الّتي تستجد في الساحة العلمية والفكرية ، وتضمر وتهزل حين تفقد الأمّة روح النشاط والابتكار وتأوي إلى السكون والتخلف "*3.

سؤال المشكل الحضاري العربي الراهن: أين الخلل ؟

إنّنا إذ نؤمن مطلقا بعظمة اللغة العربية ، وغناها وتفوقها وعراقتها وأصالتها ، بل وقدسيتها ، فإنّنا ننطلق من اعتقاد راسخ " بأن اللغة العربية هي نحن ، وهي ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وصورتنا وفكرنا ، وهي لغة مجتمعنا وهويتنا وأصالتنا...، وهي نحن ونحن هي ، وعلينا

[1] د. شاكر الفحام، تعريب التعليم العالي وأثره في مستقبل العربية ، ص 10. يقول الجاحظ : " وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسنا ، وبعضها ما انتقص شيئا "
[2] د. علي عقلة عرسان، الفصحى والعامية ولغة الحوار المسرحي ، ص 79

* لقد حاولت الأمة العربية أن تحقق نهضة حضارية جديدة ، لكن لم يقدّر لها أن تبلغ الأهداف وتحقق أغراضها في اللحاق بالركب الحضاري ، لقد قطع الطريق عليها الاستعمار بغارته الشرسة الّتي شنّها على البلاد. هكذا أضاع عليها فرصة لا تعوض وآخر دخولها ميدان البحث العلمي والتقني ، وأقصى العربية من المشاركة الجادة في ميدان العلوم الحديثة فتوقفت عما كان يقدر لها النمو والازدهار.

[3] د. شاكر الفحام، تعريب التعليم العالي وأثره في مستقبل العربية ، ص 10

أن نتمسك بها دون مراء أو مفاضلة أو مقارنة أو تشكيك ، فهي روحنا ومجتمعنا ومصيرنا ولا وجود لنا بغير وجودها ، إذ هي وحدتنا واستمرارنا ووعاء حضورنا المشترك في هذا العصر "1.

لم تكن المشكلة في اللغة بحد ذاتها ، ذلك أنّها تحمل في خصائصها مقومات بقائها واستمراريتها ، بل ونموها ومن ثمّ تطورها.

المشكلة لا تكمن في العربية من حيث هي لغة ، أي م حيث ثروة مفرداتها وغنى تركيبها وجمالية تعابيرها ، فقد استطاعت أن تمارس دورها التاريخي الحضاري القديم ، ومن ثمّ كانت صالحة لكل زمان ومكان.

البحث في المشكلة اللغوية لا ينبني – فيما نعتقد – على موقفنا من اللغة العربية بوصفها لغة ذات مميزات محدّدة. إنّما الكلام ينصب على تناول الطريقة الّتي بها تستعمل اللغة في مجتمعنا العربي المعاصر ، ومدى كفاية هذه الطريقة للتعبير عن الاحتياجات المتنوعة للإنسان العربي الذي يسعى جاهدا نحو مقومات تتيح له أن يؤدي رسالة نوعية خاصة ، لنفسه وللعام من حوله2.

مستقبل العربية رهين بمعالجة المشكلة اللغوية من جانبها العملي الوظيفي ، ولأنّها مشكلة العربي مع لغته الحية فإنّه لا بدّ من العمل الجاد للكشف عن المظاهر الأساسية للمشكلة والنفاذ إلى أسبابها ، التماسا لبعض خطوط العلاج الّتي من شأنها أن تصيّر اللغة لسانا حيّا فعّالا لوطن عربي متفتح متطلع إلى بناء حاضره ومستقبله.

تحديدا : كيف يمكن الانتقال باللغة الفصيحة من سيكولوجية اللغة العبء إلى سوسيولوجية اللغة الدافع ؟

---

[1] د. حسام الخطيب، اللغة العربية والمشكل اللغوي ، ص 41

[2] ينظر: المرجع نفسه ، ص 42

أوّلا : المشكلة اللغوية

مدخل إلى الظاهرة.

يميل العرب عادة إلى تضخيم المشكلة اللغوية وتقديمها كما لو كانت مشكلة فريدة في عصرنا الراهن ، مع العلم أنّ الشكوى العامة في أيام الناس هذه من انصراف الجيل الجديد عن اللغة ومن تدني المعرفة اللغوية لدى المتعلمين*. لكن حساسية العرب بوجه عام تجاه جوانب كثيرة من المشكلة اللغوية تكتسي طابعا خاصا بسبب عوامل كثيرة قومية ودينية وتراثها وربما تذوقية معروفة.

"... ويعود السبب في ذلك إلى أنّ اللغة ترقى إلى خمسة عشر قرنا على الأقل ولا توجد في العالم لغة أخرى عريقة مثل هذه اللغة "1. "... وبالمقابل لا أعرف لغة بين اللغات الحية يتقيد فيها مستعملوها بالصيغ والدلالات وطرق التعبير الّتي كانت مستعملة منذ اثني عشر قرنا..."2.

من هنا نشأت عندنا ثنائية متضادة : من جهة نريد أن نتقيد بالنموذج القديم وهو بلا شكّ نموذج أصيل ، ثري وجميل بحق ، ومن جهة ثانية نتساءل ما إذا كان هذا النموذج صالحا الآن لأداء المعاني والدلالات والقضايا الّتي يطرحها العصر الراهن المتسم بتجدد اللغات وبسرعة مذهلة.

هكذا يتضح أنّ أساس المشكلة يكمن في الازدواجية بين ضرورة بعث قابلية التجدد بما يلبي التطورات الحياتية المتلاحقة وما تقتضيه من احتياجات لغوية ، وبين التمسك بعراقية اللغة

* في بعض البلدان مثل أمريكا ، توجد مشكلة الضعف في الإملاء والكتابة ، كما أنّ مشكلة عجز اللغات القومية عن المحافظة على نقائها سواء في وجه التسربات المستمرة من العامة واللهجات الخاصة أم في وجه تغلغل المفردات وأساليب التعبير الأجنبية ، هذه المشكلة تبدو عامة في عصرنا الحالي عصر التبادلات الثقافية والاتصالات الإعلامية والانفتاح...

[1] د. حسام الخطيب، اللغة العربية والمشكل اللغوي ، ص 42

[2] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

ونقائها الذي يجعل الفكرة أسيرة لصيغ متوارثة وأنماط تعبيرية جاهزة تؤدي إلى إبادة حركة التفكير وتجعل الممارسة اللغوية الفصيحة قيدا وعبئا على أصحابها[1].

ما يشغل العقل اليوم : كيف نجعل العربية لغة مريحة للاستعمال العلمي والفني ، وللاستعمال العملي واليومي ؟ وكيف يغدو الناس قادرين على استعمال اللغة في راحة واطمئنان ؟

1- الأعراض : قراءة تشخيصية.

انتقالا من طبيعة المشكلة إلى مظاهرها يمكن القول : " إنّ هذه المظاهر تأخذ محورين يبدو للوهلة الأولى أنّهما متباعدان ، وهما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة المجرى الأوّل هو ظاهرة العجز الشامل في مسألة إتقان اللغة العربية ، والمجرى الثاني هو ظاهرة الارتباك اللغوي حتّى في أرفع مستويات الإتقان "[2].

بالنسبة للمحور الأوّل لا يكاد يختلف اثنان في أنّ مؤسساتنا ومدارسنا تظهر عجزا فادحا في مجال تعليم اللغة ، حتّى صيرتها عبئا على الطلاب وواجبا مفروضا. تقول (د. عائشة عبد الرحمان) : " وعقدة الأزمة ليست في اللغة ذاتها ، العقدة فيما أتصور ، هي أنّ أبناءنا لا يتعلمون العربية لسان أمّة ولغة وحياة ، وإنّما يتعلمونها بمعزل عن سليقتهم اللغوية : قواعد صنعة وقوالب صماء ، تجهد المعلم تلقينا والتلميذ حفظا ، دون أن تكسبه ذوق العربية ومنطقها وبيانها "[3].

ينضاف إلى ذلك الضعف اللغوي الشامل في الصحافة وأجهزة الإعلام والأوساط السياسية والمالية ، حتّى صار جهل العربية من دواعي الفخر عندهم.

[1] المرجع السابق ، ص 43
[2] المرجع نفسه ، ص 43 – 44
[3] عائشة عبد الرحمن، لغتنا والحياة ، ص 187

وسائل الإعلام تضرب عرض الحائط بأبسط القواعد اللغوية ، وما يؤلم حقا أن يترك حبل لغة الجرائد على غاربه. 1

والذي يزيد الأمر حيرة أنّه حتّى في الوسط الديني بدأت تتفشى مظاهر الضعف اللغوي بشكل واسع وكبير ، بعد أن كان هذا الوسط دائما معقل الإتقان اللغوي بفضل تعاطيه المستمر مع القرآن والسنّة والبعد التراثي ، ثالوث سمح بحفظ اللغة العربية حتّى في أحلك فترات المعاناة من موجات الغزو والاستعمار...

تلك هي مشكلة اللغة في واحد من فضاءاتها المهمة ، بوجه خاص في جانب التمكن النحوي الصرفي. وهو جانب غير قليل ولكنه يمثل شقا واحدا فقط من المشكلة.

أمّا في فضائها الثاني ، فإنّ تلمس المشكلة يتمّ من خلال ظواهر هي :

- ظاهرة مسح اللغة.
- ظاهر القلق اللغوي.
- ظاهرة التيار السماعي.
- ظاهرة التعويض اللفظي عن التدقيق اللغوي.
- ظاهرة عدم التكافؤ اللغوي في الترجمة.
- ظاهرة اللاتفاهم في الحوار2.

هذه بعض مظاهر المشكلة اللغوية ، بعيدا عن مسائل الإتقان والتعليم ، فما مدلول كل ظاهرة ، وما مضمونها ؟

الأوراق التالية تحاول جاهدة تلمس الإجابة ، من خلال قراءة موضوعية ترصد الفعل اللغوي عند نخبنا المثقفة ، والبدء مع :

---

[1] عن الضعف اللغوي في وسائل الإعلام ، انظر : مجلة المنطلق ، ص 132 – 133 ، وأيضا مجلة اللغة العربية ، ص 126 وما بعدها

[2] استعنا في رصد مظاهر المشكل اللغوي بالدراسة الجادة الّتي قدمها (د. حسام الخطيب) في بحثه الموسوم بـ : " اللغة العربية والمشكل اللغوي " وسنستعين به أكثر في شرح مظاهر المشكلة

أ– ظاهرة مسح اللغة :

" لسان كل أمّة جزء من عقليتها ، ولغة كل شعب ما هي إلاّ روحه كما أنّ روح الشعب لغته1. فلسفة النص تدفعنا للقول : " إنّ اللغة في استعمالاتها الحالية تبدو وكأنّها عملية ممسوحة لم يعد من الممكن التمييز الواضح فيها بين ما هو قرش وما هو خمسة قروش...2.

هي علمية نعم، و مستعملة ، ولكن يصعب تمييزها "*.

ثمة خلل ما في الكلمات الّتي تستعمل يؤدي غالبا إلى اللفظية والمجانية في التعبير إنّه مظهر التخلف ، وأخلاقيات الفعل الحضاري بصفته البلاغية تقوم على مبدإ : ألا تخطئ ولا تبطئ*.

لغتنا اليوم عاجزة باهتة في مستوى خطابها الذي تحول إلى خطاب مترهل ، وصار بلاغة ثرثرة ، لا بلاغة إعجاز وإنجاز.

إنّك إذا تصورت أنّ استعمال اللغة ما هو إلاّ نوع من وضع نسقها في ثقب معين لتشغيل الجهاز اللغوي ، فإنّك بسبب مسح اللغة تتصور أنّه يمكن وضع أيّة كلمة في هذا الثقب من أجل تشغيل الجهاز.

اللغة قانون مهمّ في نظام الكون ، فإذا اختلّ بناؤها وعجزت مفرداتها وكلماتها عن تحقيق هدفيتها وغائيتها ، تلطخت صورة الجمال ، إذ اللغة هي الجمال عينه ، وقد سئل الرسول ﷺ فيم الجمال ، فقال : في اللسان.

ب – ظاهرة القلق اللغوي والمصطلحي :

[1] د. موفق دعبول، العربية ولغة العلم : الماضي والحاضر والمستقبل ، ص 172.

[2] د. حسام الخطيب، اللغة العربية والمشكل اللغوي ، ص 45

* لعلّ أوضح مثال لهذه الظاهرة ، طريقتنا في وصف المعارك ، فكسب موقع بسيط يعادل كسب معركة كبيرة ، في مجالات أخرى كمجالات الأفراح والأقراح ، فمن الملاحظ أنّ الحرب على مسألة بسيطة يستخدم فيه من الرصيد اللغوي ما يمكن أن يستخدم لمسألة أدهى وأمرّ ، والكارثة الشخصية تعادل لغويا الكارثة القومية... وهكذا!

* تتجلى صورة الإنسان بوصفه بلاغة في ذلك الموقف الجمالي بين معاوية وصحار العبدي ، حيث سأل معاوية الصحار : ما البلاغة ؟ فقال: أن تقول فلا تخطئ ، وتسرع فلا تبطئ. ولكن صحار يتدارك الأمر ويلاحظ على نفسه فيرتدّ إلى معاوية قائلا له : أنلني ، هو ألاّ تخطئ ولا تبطئ ، انظر : أبو هلال العسكري، الصناعتين ، ص 32.

تسعى اللغات الحية في تطورها التاريخي دائما للإنتقال من مرحلة استعمال لغوي إلى مرحلة أكثر دقة وحدّة... من هنا صارت لغات العالم المتقدم شديدة التحدي بالغة الدقة*

نبع التغير من قلق مجد دفعها باستمرار نحو المراجعة والتجديد.

أمّا القلق اللغوي عندنا فإنّه أميل إلى السلبية : " والمعاني عندنا دائما التعبير عنها بكلمات أخرى جديدة. كأنّما هناك بحث مستمر عن جدوى المفردة "1 يحيلنا المعنى إلى فضاء آخر للمشكلة.. كثرة كاثرة من كتابنا تسقط في اللغات الأجنبية وتراكيبها على لغتنا الأم**.

إنّ من يراقب حركة المصطلحات العربية يجد افتقارا إلى سيكلوجية الاطمئنان لصحة الاستعمال اللغوي ، وهذا الافتقار يولد قلقا غالبا ما يظل أسيرا لإطار العجز.

ج – ظاهرة التيار السماعي :

العقل العربي ميال إلى ثقافة السماع ولغة المشافهة ، نجم عن ذلك مشكلة نفسية التعاطي مع اللغة ، مضمونها عدم الميل إلى تصديق النص المكتوب (بالفصحى) والميل إلى التأكيد عن طريق اللفظ المسموع (بالعامية)***

هل هذا يعني أنّ التطورات الّتي تحدث في اللغة العربية إنّما تتمّ على مستوى السطح ، دون أن تلامس أذهان الناس وأفئدتهم ؟

---

* يكفي التذكير أنّ 80 % من لغات العالم المتقدم مضمونها تقني محض.

[1] د. حسام الخطيب، اللغة العربية والمشكل اللغوي ، ص 46

** وما يؤلم حقا أنّ هؤلاء الكتاب يفكرون بالفرنسية والإنجليزية ناسين أو متناسين أنّ للعربية قياسا خاصا بها ، يختلف اختلافا شاسعا عن قياس اللغات الأخرى ، انظر : تصورات لتحصين اللغة العربية ، ص 132/-11-.

***ومن أمثلة ذلك ، أن الكثير ممّن يقرؤون الصحف وأنواع التحليلات ، حينما يدخلون في مناقشة يحاولون الاستيضاح سماعيا عن فحوى ما وصل إليهم كتابيا.

أم أنّه يعني أنّ اللغة الفصيحة تطورت في المجال المكتوب أكثر من تطورها في المجال المسموع ؟

الاحتمالات كثيرة وممكنة.. والمؤكد أنّ مصداقية العربية معرضة للخطر كنص مكتوب[1].

أسباب المشكلة كثيرة ، بعضها ضارب في تاريخ الإنسان العربي ، والبعض الآخر ما تقدمه وسائل الإعلام من لغة جاهزة تقف عاتقا أمام الكلمة المكتوبة*.

د – ظاهرة التعويض اللفظي :

من الظواهر السلبية في " الأنا العربي " الافتقار إلى الدقة في كل شيء** ، أدّى ذلك إلى غياب فلسفة البناء ، لتبرز عوضا عنها نزعة التكديس.

اللغة العربية الحديثة لم تسلم من هذا المأزق النفسي ما عادت العبارات تفصل على قدر المعاني ، إنّما هو لباس فضفاض يستعمل باستمرار ، دون نظر ولا تأمل ولا تمحيص ثمة شعور بأنّ الكلمة الّتي تستخدم غير كافية لاحتواء المراد منها ، فهي بحاجة لكلمة أخرى تسندها... هكذا يحصل التكرار في المكتوب من الكلام والمنطوق على السواء.

هذا كله أوقعنا في حبائل التكرار والإسهاب والنزوع إلى اللفظية ، فكانت الهلهلة اللغوية*** رمزا لظاهرة مرضية أصابت العربية.

هـ – ظاهرة عدم التكافؤ اللغوي في الترجمة :

---

[1] اللغة العربية والمشكل اللغوي ، ص 46

* في ظل ثورة المعلومات ، قد تعود للكلمة المكتوبة مصداقيتها ، بعدما تجاوزتها ثورة الإعلام

** أكبر شاهد على ما نقول أسلوب تعاطي الإنسان العربي مع الزمن ، إنّه بدل أن يعيش فيه يعيش خلاله ، وأحيانا يلغيه. وقد كان الزمن عنده ذات يوم هو الحياة!.

*** لا يجد قارئ الكتب العربية عناء في إدراك هذه الحقيقة ، فهو يستطيع القول بعد قراءة كل نص إنّه قابل للاختصار. وربما هذا لا نجده في نصوص اللغات الحية الأخرى

التعويض اللفظي يعرج بنا في اتجاه مشكلة الترجمة ، الّتي عادة ما تتعرّض لانتقادات لاذعة من ناحية تركيبها اللغوي ومقدرتها على الإبانة.

يرجع (د. حسام الخطيب) المشكلة إلى الفروق بين مستوى تطور العربية في المرحلة التاريخية الراهنة ومستوى تطور اللغات الحية الّتي تنقل عنها...

" إنّ هذا التقسيم ليس انطباعا ، وكل الذين يعملون في حقل الترجمة يلاحظون أنّ هناك حاجة لاستعمال ذات الفائض من المفردات لكي يطمئن المترجم إلى أنّه قد عبّر عن النصّ المترجم من لغة أجنبية ، وبالتحديد من اللغات من اللغات الحية إلى اللغة العربية ، ولكن بالمقابل حين نترجم من العربية* إلى لغة أجنبية حين ذلك سنجد الصعوبة "[1] في مستوى نقل التكرار إلى لغة أجنبية من نص عربي يعجّ بمترادفات مكررة بشكل مختلف.

مشكلة التعويض اللفظي داخل العربية تعيق عملية الترجمة السليمة ، فأنت غالبا ما تجد مثل هذه التعابير المضافة " وبعبارة كذا ، وبشكل آخر كذا ، ويمكن القول مرّة أخرى " وهكذا ، وكأن الكاتب يفقد الثقة بمقدرة الجملة المستخدمة على نقل ما مراده. ولا شك أنّ صعوبة ترجمة كتب العلوم الإنسانية هي أوضح مثال لتفاقم هذه الظاهرة[2].

هل المطلوب أن نلغي التكرار والإطالة ، وهما صفتان لازمتا العربية وتاريخها ؟

الأمر ليس كذلك ، والبون شاسع بين ظاهرة الفضفضة اللغوية الحديثة وبين اللغة العربية القديمة في زمننا الأوّل ، حيث كانت أميل إلى التركيز ولكنّها تطور حيث ينبغي الإطالة، وتقتصر حين يتطلب المقام الإيجاز...

وفقهنا البلاغي أكّد في بعض مواده أنّ لكل مقام مقال ، والعصر الحالي عصر اختصار وتركيز في التعبير.

* العربية الّتي قصدها الباحث هي العربية المستعملة حاليا ، لا عربية القدامى ، من مثل الجاحظ ، وأبي حيان وغيرهما.

[1] د. حسام الخطيب، اللغة العربية والمشكل اللغوي ، ص 48

[2] المرجع نفسه ، ص 49

فإذا أرادت العربية أن تكون لسانا من ألسنة العصر الراقية فما عليها إلاّ مراعاة روح الزمن الذي تنتمي إليه.

ز – ظاهرة اللاتفاهم في الحوار :

الحوار فعل حضاري ، وظيفته تقريب وجهات النظر وأحيانا تقريب فهم كل طرف لوجهة نظر الطرف الآخر.

الحوارات العربية ليست كذلك ، إنّها غالبا ما تقود إلى التباعد بدل التقارب ، حاملة في غائيتها وظيفة معكوسة.

من ثمّ كان العزوف عاما عن الحوار ومتطلباته.

الظاهرة تحمل جوانبها النفسية والعقلية ، ما في ذلك شك ، لكنّها تحمل أيضا جابها اللغوي ، ذلك أنّ اللغة " تحمل لكل فرد شحنات متفاوتة ، لا أقول معاني ، إنّما شحنات ، والتركيز على مدلول الكلمة أو العبارة متفاوت بين فرد وآخر ، لأنّ الاستعمال اللغوي الحديث لم يتبلور بعد ، ولذلك تحدث هوة بين مقاصد المرسل ومقاصد المتلقي "[1].

المطلوب أن يكون الاستعمال اللغوي أكثر انضباطا ، بغية التوصل إلى الأهداف المبتغاة من كل لقاء حواري.

وما ينبغي أن يعلم بالضرورة " أنّ كل لغة تسهم في صناعة عالم معين ، والمقصد من استعمال كلمة لغة هنا : مجموع التفاعل بين المتكلم ومجموع الموضوعات أو الأشياء مارة بنشاط ذهني معيّن "[2].

ثانيا : في الأسباب العملية

[1] د. حسام الخطيب، اللغة العربية والمشكل اللغوي ، ص 49 ، 50

[2] د. مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل ، ص 133

الخوض في أسباب المشكلة اللغوية الراهنة شديد التعقيد ، حتّى إنّ الأسباب لتغدو أكثر تداخلا وأشدّ استعصاء من المظاهر.

من هنا كان الاقتصار على الجوانب العملية فقط.

السؤال الذي تنبثق منه الخلافات والاجتهادات : هل المشكلة في اللغة العربية نفسها ؟ أم هي من صنع الأفواه الّتي تنطقها والأيدي الّتي ترسمها ؟ أي من صنع أهلها وبنيها ؟

بوجه عام ، لا توجد مشكلة في العربية بوصفها لغة ، إنّها صاحبة ماض وتراث وتجربة طويلة في مختلف المجالات : الحضارة والثقافة والعلم والحياة اليومية.

إنّها باختصار ، البحر في أحشائه الدر كامن[1].

أين منا اليوم من يتأمل في هذه اللغة ويتعاطاها بحب ، أو حتّى بإنصاف ؟

" التأمل فيها والتعاطف معها ، ينشئ الحياة إنشاء طبيعيا أصيلا كما نشأت هي عن الحياة ...ونعتقد أنّ التأمل الذكي المخلص بأسرار اللغة العربية من أفضل الحوافز لظهور إنسان الحياة العربي "[2]. وما أكثر ما تجود به لغة العرب لمن يصيخ السمع لأجراسها ، " إنّها تقدم له منهجا للبحث المتجدد في القضية الّتي يتناولها (صناعة كتابة) أم (صناعة تاريخ) أم غير ذلك... إذا صادقها وتأمل عميقا ودقيقا في موجبات كلماتها"[3].

حقائق التاريخ ، ومعطيات العلم تؤكدان أنّ العربية بريئة من تهمة العجز ، ذلك أنّ فيها من خصائص اللغة العلمية ومقوماتها ما يكفي وأكثر ، " والذين يتهمون العربية بالعجز عن مجاراة التطورات الحضارية العلمية إنّما يعترفون بعجزهم هم ، بل بعجزنا نحن في دنيا العرب نتيجة لبيئات الجهل والتجهيل والكسل العقلي والانهزامية الّتي نشأنا عليها ، مرسخة من عهود الظلمة

---

[1] صدر بيت لحافظ إبراهيم في مدح العربية وتتمته : فهل سألوا الغواص عن صدفاتي ؟

[2] د. أسعد علي، جذور العربية فروع الحياة ، ص 36

[3] المرجع نفسه ، ص 56

والقهر خلال السيطرة العثمانية والاستعمارية الغربية ولا تزال فاعلة فينا بقوى لا ندريها أو لعلّنا ندريها ولأسباب متباينة لا نتحمس لتغييرها"1.

إنّ العربية تحمل في ذاتها قدرة خلاّقة على العطاء ، فهي " تعبر عن الحياتين المادية والروحية وتطبع كلاً منهما بطابعها الخاص ، كما أنّها جانست بين سكان القارات الثلاث وخلقت منهم خلقا متجانسا ذا طابع واحد خاص..."2.

لغتنا إذن بريئة من أيّة تهمة.

والسؤال : أين الخلل إذن ؟

1- لا بدّ من البحث عن أسباب المشكلة في مرحلة التطور التاريخي الّتي تخضع لها اللغة ومجتمعها من خلفها3.

مرّت العربية في سيرورتها الزمنية بمراحل تاريخية مختلفة ومتفاوتة ، فهناك مرحلة العربية الّتي وجدت في العصور الأولى الزاهية* ، وهناك مرحلة العربية الّتي وجدت في العصر الجاهلي ، وهناك عربية العصور الإسلامية الخالدة في بغداد ، دمشق والأندلس ، ثمّ عربية عصر الانحطاط ، وأخيرا العربية الحديثة.

كانت العربية تأخذ في كل عصر شكلها الزمني ، ما ثمّة لغات ، إنّما هي لغة واحدة في أثواب عدّة ، والتواصل قائم ، فلا انقطاع.

من هنا أمكننا القول : " إنّ السبب الأوّل للمعاناة اللغوية الحاضرة هو سبب تاريخي ، إنّه استمرار عصر الانحطاط استمرار نسبيا "4.

حالة التخلف الّتي نعيشها ، نحاول أن نتجاوزها بكل ما أمكن ، مستعينين في ذلك بلغة عانت من عصور الانحطاط الشيء الكثير. هذه اللغة تعاني من مشكلة مزدوجة، من ناحية يراد

---

[1] أحمد الخطيب، المواصفات المصطلحية وتطبيقاتها في اللغة العربية ، ص 30

[2] زغريد هونكه، شمس الله تسطع على الغرب ، ص 272 – 273

[3] د. حسام الخطيب، اللغة العربية والمشكل اللغوي ، ص 51

* هي عصور عاد وثمود وغيرهما حيث كان عطاء الحضارة قويا في بعده المدني

[4] د. حسام الخطيب، اللغة العربية والمشكل اللغوي ، ص 50

لها أن تكون أداة للخروج من الانحطاط والتخلف ، ومن ناحية أخرى نجد أنّها ما زالت في بعض جوانبها أسيرة لموروثات الانحطاط والتخلف ، " ذلك أنّ الظواهر اللفظية والتيار السماعي والقلق اللغوي وكذلك الضعف اللغوي والإملائي، هي في جانب منها، إرث من عصر الانحطاط له دائما جانب فكري اجتماعي مثلما أنّ له جانبا لغويا صارخا..."1.

نتج عن ذلك سجال ثقافي لغوي بين تياري المحافظة والتجديد ، أدّى في حالات كثيرة إلى تبادل الاتهامات*.

وفي لحظة تأمل معرفي يتبين لنا أنّ العربي بوضعها الحالي تعاني من عدم استواء زماني تاريخي كما تعاني من عدم استواء مكاني جغرافي وكذلك من بلبلة موقفية ، مما يجعل التعميم بشأنها مغامرة علمية ، كما يجعل كثيرا من الأبحاث (الصماء) المتعلقة بها مفتقرة إلى الدقة النوعية "2.

ينعكس ذلك كله على منهجية التعليم وطريقة التعبير ، مما يفقد المجتمع فرصة وجود مرجعية لغوية معاصرة متفق عليها ، نحتكم إليها لحظة تباين المواقف واختلاف الاجتهادات**.

2- غياب المرجعية اللغوية الواحدة بسبب اللحظة التاريخية الّتي يعيشها الأنا العربي ، والّتي ولدت صراعا بين جناحي المحافظين والمجددين في أسلوب التعاطي مع اللغة ، زاد في احتياج الأمة الدائم إلى استيراد الأسماء من الخارج ، لأنّها تصاحب مسمياتها.

الواقع التاريخي – الذي لا يحابي أحدا – يؤكد أنّ المجتمع العربي مضطر – بسبب تخلفه الفاضح – إلى الاستعانة المتواصلة بالآخر المتفوق الذي يمدّه بالمنتجات الفكرية والعلمية

---

1 المرجع السابق ، ص 51

* إذا نحن وقفنا عند حدود الانتقادات المتبادلة يمكن أن نميز ميلا لدى المحافظين إلى اتهام الأساليب المولدة بالوقوع في حبائل العجمة والرطانة والركاكة والخروج عن أساليب العربية. في حين أنّ الاتهامات المقابلة تتركز حول المقابلة تتركز حول الجمود والابتعاد عن الواقع واللفظية والتعلق اللغوي غير الوظيفي.

2 المرجع نفسه، ص 52

** لعل ممّا يخفف وطأة هذه المعاناة وجود القرآن الكريم بين ظهرانينا. إنّه النمط الأعلى المتمتع بإشعاع مطلق.

والعملية الأجنبية ، وهذه الحصيلة الدافقة باستمرار من الخارج وفي شتّى مجالات الحياة ، تجلب معها مصطلحات ومفردات وأساليب تعبيرية ، دون إذن من المجامع والمؤسسات اللغوية التربوية.

والنتيجة : خلل وارتباك لغوي متفاوت الدرجات ، ووفق كل بلد من البلاد العربية ، وفق مبلغ السيطرة الأجنبية الّتي تفرضها العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية.

لا شكّ أنّ عقارب ساعة التخلف ستواصل زحفها ، ولا شكّ أنّنا سنظل إلى مدّة طويلة نستورد التسميات ومعها الأسماء. وما دمنا عاجزين عن الإنتاج فستبقى التسميات متأخرة لاهثة وراء المسميات.

الأمر ليس قضاء محتوما ولا قدر مفروضا ، إذ أنّه يمكن عن طريق الاتصال العلمي والاستعداد المسبق تلبية جانب كبير من الاحتياجات المتعدّدة ، شرط ذلك فقط كلمة الاتفاق والالتزام...

لا شكّ أنّ المسألة بالغة الصعوبة ، تشتت عربي وتجزئة للمواقف من جهة ، تزايد مستمر في المسميات. هذا كلّه يجعل الأمم المستوردة ماديا وثقافيا مستوردة لغويا أيضا ولاهثة وراء المصطلحات.

والذي زاد الأمر سوءا أنّ عملية التعريب لا تسير بشكل تراكمي منظم ، لذلك لا يشعر الناس بضخامة الجهود الّتي قدمتها المجامع اللغوية والمؤسسات العلمية العربية المتخصصة، وهي جهود غير كافية ، وإن كان لا مجال لإنكارها.

بسبب اضطراب هذه الجهود وعوامل أخرى كثيرة بقيت قطاعات كاملة من الحياة العربية مقتصرة إلى أي تعريب حقيقي ولو في أبسط تمثلاته.

3- الحرص المفرط على العربية واعتبارها " قدس الأقداس " عقّد المشكلة اللغوية وحال دون أي تقرب موضوعي منها.

لا شكّ في أنّ الفضل في الحفاظ على العربية يرتد إلى الحرص الشديد عليها ، إلاّ أنّ ذلك يتخذ أحيانا صورا مبالغا فيها تصل إلى حدّ التحريم ، لتصبح المراجعة اللغوية من

"التابوهات" ، وأيّة محاولة لمناقشة المسائل المتعلقة باللغة نوعا من اختراق الخطوط الحمراء ، يتعرّض بسببه المناقش إلى أخطر تهم المروق والتآمر*1.

إنّ المجتمع العربي الذي يسعى جاهدا لبلورة مشروعه النهضوي الجديد ، يحتاج إلى أداة لغوية طيعة فعالة. من هنا كان لزاما ألاّ تترك العربية في مجابهة خطر الانزلاق المرحلي.

الدفاع عنها يكون بالإقدام لا بالانكفاء. وأخطر ما يمكن أن تبتلى به اللغة هو العجز عن التكيف مع متطلبات الحياة وواجبات المرحلة.

المطلوب مواجهة التحدي بالإقبال على تسهيل عملية التجاوب الوظيفي والعملي أمامها حتّى يشعر أبناؤها بأنّها لغتهم الطبيعية**.

4- "تابو" اللغة ولد تقصيرا في خدمتها ، ليكون الأخير سببا آخر حال دون تطور اللغة العربية.

ما فتئت الأمّة تتغنى يوميا بجمال العربية وقدسيتها ، لكن دون خدمة نحوية أو معجمية أو لسامية ، " ولو أحصينا عدد الكتب غير المدرسية أو غير الجامعية الّتي تعالج المشكلة اللغوية العربية لبهتنا ، لأنّ هذه الكتب محدودة جدا ، قد لا تتجاوز أصابع اليد عددا ".

إنّ العربية بحاجة لمزيد من الأبحاث اللغوية واللسانية الّتي تعنى بها. وعلى كاهل المتخصصين واجب خدمة اللغة خدمة قصدية عملية ، وهذا هو الجواب الذي ينبغي أن نواجه به التخلف اللغوي...

5- إذا كانت معظم أسباب المشكلة اللغوية عندنا داخلية ، فإنّ الصورة لا تكتمل بغير الإشارة إلى ما يمكن أن يسمى بالأسباب الدولية. إنّنا نعيش في عصر تمازجت فيه الحضارات والثقافات والأفكار ، إلى درجة صار الحديث فيها دون حرج عن تسميات مثل "المناخ الثقافي العالمي" ، و"المناخ العلمي العالمي" ، وكذلك "المناخ اللغوي العالمي".

* ينبغي التمييز بين دعاة تغيير الحرف العربي ، وأولئك المصلحين الذين يسعون جاهدين في إخلاص تقديم اقتراحات تساعد على الخروج من المشكلة اللغوية.

[1] مجلة المنطلق ، ص 141.

** في هذا الإطار يجب أن تعمل المؤسسات المعنية جنبا إلى جنب مع الأفراد المتخصصين لتكون العربية لغة الجميع : طيعة ، حرة ، منطلقة ، وطبيعية.

في زمن العولمة تتسارع اللغات الحية إلى التقاط ما هو نافع ولازم لها. ينضاف إلى ذلك ما نشهده من منافسة بين اللغات الحية الّتي أصبحت تتجاوز حدود البلدان والقارات. إنّ لغة مثل اللغة الإنجليزية تهدّد اللغات القومية في عقر دارها وتغزوها وتزيّن للناشئة العزوف عن اللغة الأم والانصراف إليها*.

إزاء هذه الظاهرة يصعب أن تفيد القيود والأسوار ، بل إنّ الحل يكمن في مزيد من المرونة والانفتاح اللغوي وتقوية الفعالية العصرية للغة العربية.

بغير ذلك نخشى أن نحكم على لغتنا بالانزواء والانكماش.

ونعود لنؤكد أنّ : " حياة أمّتنا وانبعاث حضارتنا رهن بحياة لغتنا العربية الّتي تحتّم علينا أن نوفر لها الوسائل لكي تستعيد أمجادها وحيويتها1.

ثالثا : بين الإرادة والإمكان

ينبغي أن يظل حاضرا في ساحة وعينا أنّ اللغة – بوصفها أداة وبوصفه مسؤولية وبوصفها طريقة في التفكير – تحتاج إلى صيانة خاصة لكي نتوسلها للخروج من متاهة الدونية.

* يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه " مشكلات في طريق الحياة الإسلامية " : " نحن نرى الإنجليز – في عصرنا – يفعلون العجب في تعميم لغتهم ، ويبتكرون الحيل الطريفة لتحبيبها إلى النفوس ، حتى أصبحت الإنجليزية لغة العالم ولغة العلم معا " ، ص 74.

[1] ريمون طحان، اللغة العربية وتحديات العصر ، ص 26

وهي ذات إمكانيات وطاقات عظيمة ، لكنّها عاطلة اليوم ، ونحسب أنّه قد آن أوان توظيفها في خدمة تطلعات أمّتنا المستقبلية.

1- " من أوّل أبواب الحل أن نعي العلاقة العضوية ما بين مفهوم الوحدة والأمة وهو مفهوم أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ * ...ممّا يعني أنّ الأمّة لا توصف بأنّها أمّة إلاّ إذ كانت واحدة ، أمّا إذا لم تكن واحدة فهي ليست بأمّة. وإذن لكي نحقق مفهوم (الأمّة) لا بدّ من قيام (الواحدة) ويكون جهدنا منصبا على التوحيد أوّلا لكي نؤسس (أمّتنا) "1.

ولن يتأتى ذلك إلاّ بكسر الثنائيات في فكرنا التنويري مثل : الأصالة والمعاصرة ، الوطن العري والإقليم ، العروبة والإسلام..." وهذه الثنائيات ليست متضادة ولا متعارضة ، ومن الصحيح التوحيد بينهما في معادلات مرك بة تفضي إلى ناتج إيجابي"2.

ما دام الانشطار عندنا قد هش جسد اللغة وبدّد روحها بأن جعلها لغتين متعاديتين هما الفصحى والعامية – وهي ثنائية قاتلة – فإنّ الأمر يستوجب منا السعي الحثيث من أجل (تعميم الفصحى وتفصيح العامية). وهذا شرط أساس للخروج من دوامة الثنائية الغبية ، لكي نبدأ مشروعنا النهضوي حيث الوحدة أساس للأمة ، والقول مطابق للفعل. ويكون الإنسان – إذن – لغة ، حيث الجمال لا يخطئ ، ولا يبطئ. فإن لم يكن ذلك فالصمت خير كي لا نظل نوبخ أنفسنا مذ أن صار قولنا يخالف فعلنا3.

2- يوجهنا تحد آخر – بعد الثنائيات – إنّه : فقد التحيز والانبهار بالآخر ، ذلك أنّ السرعة الّتي ننزع بها نحو الغرب تركت أثرها في مواقفنا من اللغة... قل إنّ الإحساس بالكلمة أصابه بعض الاضطراب ، وتعرضت اللغة لنوع من عدم الثقة ، الذي يتخفى أحيانا "4.

---

* سورة الأنبياء ، الآية 92.

1 د. عبد الله الغذامي، الإنسان بوصفه لغة ، ص 65
2 المرجع نفسه ، ص 65
3 ينظر المرجع السابق ، ص 66
4 د. مصطفى ناصف، اللغة والتفكير والتواصل ، ص 33

وبدت الكلمات كأنّها تضاءلت أو تغيرت ، وبفضل هذا الرهب الذي يسكننا أو بفضل تلك السرعة في النزوع نحو الآخر ، راحت جوانب اللغة تتصارع ويلطم بعضها بعضا[1].

3- اتفقنا على أنّ اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمّة أو ذاتها العامة.

وبقي أن نتفق على كون التحدي الذي يواجهنا اليوم وغدا القريب والبعيد هو تحدي "استنبات العلم وتوطين التكنولوجيا عربيا... فاللغة (أي لغة) هي المهد الذي ينبت فيه العلم، وما استفاد قوم علما إلاّ علما زرعوه بلغتهم "[2].

تلك القوة المتأججة في ذات الأمّة ، إذا هجعت ومسها الوهن توقفت اللغة عن مسيرها وعادت القهقرى ، وفي التقهقر الموت والاندثار ، وتلك هي قوة الابتكار.

إذن "فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن – أو غير الكائن – في مجموع الأمم الّتي تتكلم اللغة العربية ، فإن كان ذلك الفكر موجودا كان مستقبل اللغة عظيما كماضيها "[3].

4- ثمّ يأتي التعريب إذ هو الركن الأساسي في العلاج ، والنظر إليه يأتي من زاوية التحليل الوظيفي ، "يعني اللغة العربية وسيلة لتوصيل المعرفة ، ليس فقط على مستوى المدارس والمعاهد. بل أيضا وهذا ما يجب إعطاؤه الأهمية القصوى لجماهير الشعب.

وهل يمكن مخاطبة الشعب العربي بلغة فرنسية أو إنجليزية أو غيرها ؟

من هذه الزاوية ، زاوية توصيل المعرفة ، يجب أن ننظر اليوم إلى مسألة التعريب.[4]

إنّ الأمة بحاجة إلى لغة تكون أداة تواصل وتوصيل... وما ثمّ إلاّ العربية لغة تعبر عن الذات. فالمرء يمكن له أن يستقبل العولمة والمعاصرة وغيرهما بلا حدود ، لكنه عاجز على أن يجعل الشعب الذي ينتمي إليه يتكلم لغة غير لغته[5].

---

[1] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها
[2] شفيق الخطيب، المواصفات المصطلحية ، ص 30
[3] جبران خليل جبران، البدائع والطرائف ، ص 59
[4] جبران خليل جبران، البدائع والطرائف ، ص 59
[5] ينظر: المرجع نفسه ، ص 12

كتب الجابري : " فنحن إذن أمام أمرين لا ثالث لهما : إمّا أن نعرّب التعليم وإمّا أن نفرنس الشعب " 1.

تلك هي القضية في جدليتها ، وليس أمامنا إلاّ أحد الحلين ولا شكّ في كونه الأوّل.

من هنا وجب تعريب الحياة العامة ، ولا يتمّ ذلك إلاّ بتوفر جملة من الشروط، أهمّها:

- الإرادة السياسية قبل الإرادة العلمية.
- التنسيق العلمي والتنفيذ العملي.
- اعتبار التعريب عملية إستراتيجية انتقالية حتّى لا نكون دوما عالة على غيرنا.
- الإيمان بتعريب فكرنا قبل تعريب لساننا وثقافتنا ، لأنّ الفكر ملكنا ، والثقافة عنصر مشترك بيننا وبين سوانا من الأمم والشعوب.
- عملية التقويم المستمر والمراقبة الصارمة.
- التنقيب في التراث المهيأ قبل الإقدام على الترجمة والتعريب.
- شحن الكلمات العربية المهملة حتّى الآن شحنا يقترب من المعنى العام كما هو مستعمل ومخترع في آن واحد2.

إنّ السعي الجاد والموحد لفك عقدة المشكلة اللغوية العربية " هو ضرورة قومية يقتضيها ترابطنا أفقيا بوصفنا أمّة ويحتمها ترابطنا عموديا مع تاريخنا وجذورنا وتراثنا وعروبتنا "3.

وقد قاومت العربية كل محاولات التمزيق ، فظلت الرابط القومي الروحي ، إذا قد أدت اللغة مهمة الصمود ، لكن لم نؤد مهمة الترميم فضلا عن مهمة البناء.

---

[1] نفسه ، ص 12

[2] ينظر: د. عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ ، ص 209 وما بعدها

[3] شفيق الخطيب، المواصفات المصطلحية ، ص 31

قال (أ. رفعت فتح الله) في محاضرة له : " إذا كنا نريد جيلا صاعدا بوعي صاعد فلا يتمّ هذا الصعود إلاّ بلغة صاعدة "1.

[1] نقلا عن : د. توفيق شاهين،عوامل تنمية اللغة العربية ، ص 17

خاتمة

مع تبلور شكل جديد لنظام عالمي لم تتحدد ملامحه بعد ، تثار قضايا وتطرح إشكاليات حول طبيعة هذا النظام ،ومدى قدرته على تحديد أطرافه، ومظاهر كونتته، وأهدافه الواضحة و الكامنة،ومن له الحق في إدارة شؤونه ، وهل يحقق مصالح كافة الذين ينتمون إليه من الدول و الأمم ، وأثر تشكله على البنى التقليدية المنتشرة في الجزء الجنوبي من العالم.

ولعل أهم التساؤلات المثارة ، والتي تشير ضمنا إلى قضايا وإشكالات تعبر عن هموم الإنسان العربي المعاصر،تبدأ بماهية العولمة : هل هي دعوة إنسانية صنعها الذهن الرأسمالي بعد شعور الإنسان الغربي بفقدان ذاته في مرحة الحداثة ؟ أم هي آخر ورقة تخرج من عباءة الليبرالية تأكيدا لفلسفة التمركز، لكن بأسلوب إنساني مقبول من العالم أجمع ؟ هل هي سياسة أمريكية جديدة قادرة على إلغاء الحواجز بين الدول ؟ أم تأخذ في اعتبارها خصوصيات الدول و سيادتها الوطنية و هويتها القومية ؟ العولمة: مامدلولها في فكر دول الجنوب الفقير ؟ أين الهوية الوطنية في ظل تشكيل المواطن الكوني و سيادة القيم الفردية ؟ وما علاقتها بالشخصية الوطنية ؟ لماذا وكيف يتم اختراق الثقافة الأمريكية لثقافات الشعوب الأخرى لتصبح ثقافة عولمية ؟ ما عناصر الجذب التي تمتلكها الثقافة الأمريكية ؟

ولماذا يقبل عليها المواطنون في دول العالم أجمع ؟ ومن أهم أكثر الفئات الاجتماعية تأثرا بتلك الثقافة ؟ 1

الأسئلة كثيرة ومحمومة تتحرق لمعانقة الإجابة عليها .

"جيران في عالم واحد "، شعار نظام عالمي جديد في طور التشكل ترتسم فيه معالم طريق يقود الإنسانية إلى تخيل العالم قرية كونية صغيرة تضم الأمم والشعوب ، وتتأكد فيها الحاجة إلى نظام قيمي مشترك ، ونظام أخلاقي مدني عالمي ، وممارسة مستنيرة تقود الشعوب إلى جوار دولي واحد.

---

[1] ينظر: مجلة عالم الفكر ، ص 125

إذا صح هذا فليس للعولمة مهما اختلفت التأويلات سوى مدلول واحد : صيرورة العالم واحد"1.وتحدد باعتبارها مجتمعا إعلاميا شاملا وشموليا ، تنتشر فيه المعرفة والعلم و اللغة (ات) ، ويتم تعميمها بحرية منقطعة النظير ، أي مجتمعا تنسج فيه علاقات رمزية اتصالية . تلك في الخاصية الأولى للعولمة ، و الثانية تتمثل في اختراقها للحدود .2.

و هنا تبرز خلاصة تتمثل في ازدواجية دلالة العولمة ،فهنالك:

– الأبعاد الإجرائية و الجوانب الموضوعية ممثلة في تقنيات المعلومات والإعلام والاتصال،وهي عملية حضارية جديدة تسير في اتجاه النمو المتسارع لتقريب أبعاد العالم وأطرافه .

– وهناك المشروع الاديولوجي الذي يحاول تعميم اقتصاد السوق وثقافته على العالم في عملية تنميط أحادي .انطلاقا من مركز الثقل المالي والتقني والإعلامي الراهن المتمثل بأمريكا .3.

فأي البعدين أهدى سبيلا ؟

البعد الإجرائي إلى دسم العولمة أقرب ، أما الاديولوجي فهو السم الناقع .

ذلك أن ايدولوجيا العولمة تسعى جاهدة من خلال الصورة السمعية البصرية وغيرها إلى السيطرة على الإدراك وصولا إلى تسطيح الوعي والارتباط بما هو على السطح من صور ومشاهدات ذات طابع إعلامي – إعلاني مستفز للانفعال من خلال الشحن بمختلف ألوان الإثارة،والغاية من إدارة الإدراك توجيه الخيال وتنميط الدوق ،وقولبة السلوك وصولا إلى ترسيخ نظرة معينة إلى العالم .

هكذا تسعى العولمة إلى إلغاء الجماعة والدولة والوطن والأمة ،ليرتبط الفرد بالفضاء الإعلامي4 .

---

[1] مجلة نزوى، العولمة والتنشئة المستقبلية ، ص 20

[2] فكر ونقد ،العولمة و التاريخ، ص 113

[3] ينظر: مجلة نزوى، العولمة والتنشئة المستقبلية،ص 20

[4] المرجع السابق، ص25-26

إنها عولمة التوجهات .

هويات و خصوصيات معرضة لخطر التذويب،و ترويج ثقافات سيكون على حساب ثقافات أخرى ،والكيانات الصغيرة أعجز عن مزاحمة التكتلات الكبرى، والمجتمعات المنكمشة على ذاتها ليس أمامها إلا أحد اثنين :انفتاح قيصري ، أو غزو مفروض، لكن بقوة لينة .

لن تقتصر العولمة على المنحيين السياسي والاقتصادي ،بل تتعداهما في تأثيرها لتشمل الأبعاد الفكرية والثقافية واللغوية .ففي عصر العولمة ووفق فلسفتها، ،تخضع الثقافة واللغة للتعميم والانتشار بنفس الكيفية وبذات السرعة التي يتم بها التعميم والانتشار على البضائع التجارية .

"وتبعا لهذا فنحن نشهد تحولا خطيرا لا في المشهد الاقتصادي والاجتماعي فحسب، بل أساسا وأيضا في المشهد الثقافي واللغوي، بحيث إننا نشهد تنميطا رمزيا ولغويا."[1] والهدف واضح:مزيد من التمركز للغرب الصناعي، وتدمير مستمر للرموز الثقافية واللغوية أو احتواؤها احتواء يذيبها بالتدريج أو يضعفها.

ولو تجازنا مبدئيا التساؤل حول: هل ندخل العولمة أم لا ندخلها؟ذلك أننا ضمنها سواء بشكل فاعل أم تابع،مؤثر أم متأثر. فإنما ينبغي أن نطرحه سؤالا في لحضتنا التاريخية الراهنة هو : كيف نكون في العولمة وأي موقع نصنع لأنفسنا ؟

المسارات التي تأخذها الإجابة كثيرة متعددة، نكتفي منها بخط اللغة،وسؤالها: هل العربية قادرة على رسم طريق الاستجابة الفاعلية ؟

أقادرة هي على إيجاد موطئ قدم لها على أرض قال عنها جاليليو :إنها تدور ! ؟

[1] فكر ونقد، العولمة و التاريخ، ص113

بقاء و نماء...

إذا كان علماء اللغات الأجنبية قد أكدوا أن اللغة كائن الحي، تنمو وتتطور، ثم تهرم وتموت، فإن هذا النظام لا يسري على اللغة العربية ببنوده الأخيرة ،إذ هي شواذ على القاعدة ،فقد حققت نجاحا في الاستمرارية،وغدت أطول اللغات الحية عمرا، في حين انحسرت نداتها من اللغات العالمية:اليونانية،واللاتينية،والفهلوية، والآرامية،والسريانية ...لغات الحضارات القديمة، و الإمبراطوريات السالفة. إن اللغات الأوروبية الحالية:الفرنسية،الانجليزية،الألمانية،الايطالية،...تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي بعد أن أخذت مكان اللاتينية،في حين تميزت اللغة العربية بخصائص منحتها الحياة الأبدية،وشربت الماء الخضر فلم تعد تخشى الفناء1.

في زمن العولمة تبرز تلك الخصائص،صانعة مناعة للعربية،وعلى رأسها:

- الخاصة القرآنية:(إنا أنزلناه قرآنا عربيا)2، نزل القرآن الكريم بأفصح اللهجات العربية، فألف بينها ووحدها، وغدا حصنا منيعا يحميها من الذوبان والموت والفناء.فالعربية وكتاب الله صنوان لا يفترقان،ارتبطت حياتها بحياته،وقد قال تعالى:(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)3.

-القواعد التي وضعها النحات العرب في جهد لا يعرف الكلل وتضحية جديرة بالإعجاب، تكفلت بعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ وتركيب الجمل ومعاني المفردات على صورة محيطة شاملة بحيث بلغت القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد.4

"العربية إذن تكونت من عناصر تمت للأبدية والخلود، إن عناصر هذه اللغة تنسحب إلى ماض لا أول له، وفي طاقتها أن تمتد إلى مستقبل لا آخر له"5.

---

[1] المنطلق، ص121

[2] سورة يوسف:2/12

[3] سورة الحجر:9/15

[4] يوهان فك، العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ص14

[5] الإبراشي، الآداب السامية، ص25

كتب (يوهان فك):"لقد برهن جبروت التراث العربي التالد الخالد،على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى على مقامها المسيطر،وإذا صدقت البوادر،ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ أيضا بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية،ما بقيت هناك مدنية إسلامية"1.

أمام طوفان العولمة تقف العربية منيعة الجانب،في أصواتها،و صرفها، ونحوها،وتلك هي"الحصون الثلاثة التي لابد أن ندافع عنها ضد الغزو الحضاري، ومؤثرات الصراع الفكري"2.

وماء الحياة الذي يروي الشجرة الظمأى لن ينضب أبدا، لتبقى هي باسقة كعادتها!.

"إن العربية ذات الخصائص الحية المرنة ليست هي المتخلفة،فقد أدت دورها في حضارة الإنسان ولا تزال تؤديه.إنما التخلف في العقلية والنفسية وفي مناهجها وطرائقها...وفي خواء المنهج وتعثر الخطة"3.

وما نعانيه من تخلف في حقول العلم والثقافة ليس مرده إلى عجز في لغتنا،بل الأمر يعود إلى حالة الاستلاب الحضاري التي نعيشها،والتي أوجدت فينا قابلية التخلي عن كل ما يتصل بمقوماتنا،والارتماء في أحضان من يتزعمون ركب الحضارة والتاريخ.

يؤكد(أ.د عبد الصبور شاهين)هذه الحقيقة المرة،بقوله:"ومما لا شك فيه أن اللغات الحضارية في عصرنا متعددة،وهي تتبع مراكز القوة في العالم حيث تقوم الصناعات الكبرى،وتعيش الكثافة السكانية،وتتركز قوى التأثير في سياسة العالم،وفي اقتصاده واتجاهاته الفكرية، ونشاطه الإعلامي.

وفي هذا الصدد نذكر اللغات:الانجليزية،الفرنسية،الالمانية...،ولكن الانجليزية تتقدم بلا منافس بين هذه اللغات،وغيرها من لغات العالم،فيما يتعلق بتمثيل المقومات

---

1 يوهان فك، العربية:دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ص242

2 د. عبد الصبور شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية،ص106

3 د. توفيق محمد شاهين، عوامل تنمية اللغة، ص10

الحضارية،بل قد أصبحت اللغة العالمية الأولى في عصرنا، وكل ما يجري على هذا الكوكب يجد تسجيله في هذه اللغة و تعبيره العلمي والإعلامي.

ويأتي موقف العالم الناطق بالعربية من هذا الواقع،فهو يتعامل معه،كما يتعامل الطالب المتواضع مع أستاذه العبقري،لقد أصبح عالم اللغة الانجليزي هو معهدنا ومقصد بعثاتنا،ومصدر أدواتنا الحضارية،وليس من الغريب أن نجد طابع الانجليزية على كل منتج حضاري حتى ولو كان بلاد الصين"1.

تلك هي المشكلة،في أبعادها الحضارية،ترنح بين انكماش وانغماس....

أمام هذا الوضع المزري،من واجبنا أن نرفع أصواتنا عاليا،ونقول مع (أ.د عبد الصبور شاهين):"لقد بلغت أمتنا من الرشد ما يلزمها بالانتهاء من هذه المشكلة،واستئناف مسيرتها الحضارية بلغتها،وقطع الطريق على دعاة التخاذل من أبنائها الذين تلقوا علومهم في الغرب أو في الشرق وفقدوا أهم مقوم من مقوماتهم القومية،وهو معرفتهم للغتهم الأم،و القدرة على الأداء العلمي من خلالها "2.

وبعد، فاللغة قضية الأمة:

منذ بدء عصر التدوين، أكدت العربية حضورها، فقد استوعبت الثقافات العالمية، وعنها نقل الغرب إلى لغاته . لكن النكوص السياسي العربي الإسلامي أدى إلى تراجع الثقافة العربية و دخولها عصر الانحطاط . وهذا لا يعني أن اللغة لاتستوعب النهضة الحالية ، إنما الشعب العربي هو الذي يعيش حال التخلف في الأدب و الفكر والاختراع و التقنية .فالمكتشفات غربية، وأسماؤها أجنبية ، ولا تضيق العربية بإعطاء مفردات لمسميات جديدة مهما غزرت3

---

[1] د. عبد الصبور شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية، ص 308

[2] المرجع نفسه ص 334

[3] **المنطلق ، ص127/126**

يقع اللوم على الإنسان العربي و حكوماته القاصرة ، تخلف في الإنتاج أدى إلى عدم ظهور مفردات لتغطية ما يصنعه الغرب ، وهو أمر لا يعيب اللغة ، إنما يعيب الشعب الذي عجز عن العطاء.

العربية جديرة – بواسطة الاشتقاق و النحت والتعريب – بأن تؤدي رسالتها الإنسانية والدينية و الحضارية

اليوم.. العربية لغة متشعبة القواعد ، وتعليمها يحتاج إلى معانات ومشقة، وعلى أهل التخصص واجب اختراع طرق تيسير قواعدها ، وضبط أصواتها ، "و نحن نرى الإنجليز في عصرنا يفعلون العجب في تعميم لغتهم و يبتكرون الحيل الطريفة لتحبيبها إلى النفوس حتى أصبحت الإنجليزية لغة العالم ولغة العلم معا1.

أخيرا:

العربية أداة ناجحة لجمع الشمل...وتحقيق الوحدة الكبرى،وهي إلى هذا تحمل من مواريث الدين والثقافة والعلم والقيم الإنسانية الرفيعة والروائع الفنيةالسامية ما يكتب لها البقاء والخلود.

"لقد قدرت إن تكون لغة شعوب لم تكن في الأصل تكلمها، وبقيت العربية لغة الحضارة الإسلامية وستبقى أصلية في حفظ الحضارة وفي دفع أبنائها لإخراج الحضارة الإسلامية من نقطة توقفها إلى مرحلة العطاء الكامل"2.

التاريخ لمن يصنعه،والمستقبل لمن يبتكره،والعربية بحاجة إلى من يحقق لهافي ظل العولمة الاستجابة الفاعلة.

وحتى تعثر الذات على ممكناتها الشاردة يبقى السؤال مفتوحا على المستقبل: ماذا بعد؟!

و الله يهدي إلى الحق و الصواب بإذنه.

---

1 محمد الغزالي، مشكلات في الحياة الإسلامية، ص 74

2 محمد علي ضناوي، مقدمات في فهم الحضارة..، ص 50

تلمسان في:10 ربيع الثاني1428هـ الموافق ل: 29 مارس 2007م

الفهارس العامة

فهرس المصادر و المراجع

-

- القرآن الكريم

أ * المصادر:

- الإشبيلي ، ابن عصفور:

1- الممتع في التصريف . تحقيق د فخر الدين قباوة . بيروت : دار الآفاق الجديدة

- ابن جني ، أبو الفتح عثمان:

2- الخصائص. تحقيق محمد علي النجار . لبنان : دار الهدى، د ت، ط 2

3- المنصف شرح لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني.تحقيق إبراهيم مصطفى.مصر: وزارة المعارف ، 1954 هـ

- ابن فارس ، أحمد :

4- الصاحبي في فقه اللغة العربية و مسائلها و سنن العرب في كلامها . تحقيق د. عمر فاروق الطباع . بيروت : مكتبة المعارف 1414 هـ 1993 م .

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم:

5- لسان العرب . لبنان : دار الكتب ، دار صادر . 1388 هـ ، 1986

- الرازي ، محمد بن أبي بكر:

6- مختار الصحاح. تعليق الدكتورمصطفى ديب البغا . الجزائر : دار الهدى، 1990، ط 4

- سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبز:

7- الكتاب. تحقيق و شرح عبد السلام هارون . بيروت: دار الجيل 1411 هـ 1991 م.

- المبرد، أبو عباس محمد ابن زيد:

8- المقتضب ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة . بيروت: عالم الكتب، د ت

ب * المراجع:

- الإبريشي ، محمد عطيه:

1- الآداب السامية. لبنان: دار الحداثة، ط2، 1984.

- أبو ناضر ، موريس :

2- أفكار جديدة لعالم جديد . المغرب المركز الثقافي العربي، 1995.

- الأسمر، راجي:

3- المعجم المفصل في علم الصرف . مراجعة د. إميل بديع يعقوب. بيروت:دار الكتب العلمية 1997 م.

- بيار ، جون فرانسوا:

4- أوهام الهوية ، ترجمة حليم طوسون . القاهرة: دار العالم الثالث، 1998

- بكري، د عبد الكريم:

5- فصول في اللغة و الأدب . الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، د ت

- ابن نبي، مالك:

6- مشكلة الأفكار، ترجمة د بسام بركة و د. أحمد شعبو . الجزائر : الملكية للإعلام و النشر والتوزيع .

- ابن نعمان ، د . أحمد :

7- هذي هي الثقافة، الجزائر: دار الأمة، د ت

- الجابري ، د محمد عابد :

8- تكوين العقل العربي . بيروت : لبنان : دار الطليعة للطباعة و النشر، 1984 .

- جبران ، خليل جبران :

9- البدائع و الطرائف . لبنان : المكتبة العلمية الجديدة . د ت ، د ط .

- الجندي، أنور:

10- المؤامرة على الفصحى لغة القرآن . تونس : دار بوسلامة، 1985 .

- الجزائري، د محمد ابن عبد الكريم:

11- لغة كل أمة روح ثقافتها. الجزائر: دار الشهاب د ت، د ط.

- جودت سعيد ، علواني عبد الواحد :

12- الإسلام ، الغرب و الديمقراطية . دمشق : دار الفكر، 1998 .

- الجوهري، د.محمد:

13- الأنتروبولوجيا : أسس نظرية و تطبيقات عملية . مصر : دار المعارف، ط3،1982

- الخطيب ، سلمان :

14- أسس مفهوم الحضارة في الإسلام . الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب،د ط ، د ت .

- الدشومان، هار و بيار، مارتين هانس :

15- فخ العولمة : الاعتداء على الديمقراطية و الرفاهية . ترجمة عدنان عباس علي ، مراجعة وتقديم رمزي زكي . الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، عدد 238 أكتوبر 1998 .

- الرافعي ، مصطفى صادق :

16- وحي القلم . لبنان : دار الكتاب العربي ، د ت

- شاهين، د توفيق محمد:

17- عوامل تنمية اللغة العربية. مكتبة وهبة ، 1993

- شاهين، د، عبد الصبور:

18- العربية لغة العلوم و التقنية . القاهرة: دار الاعتصام،ط2، 1986.

- السويدي، محمد:

19- علم الاجتماع الثقافي و مصطلحاته . الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب،1991

- الصالح، د. صبحي:

20- دراسات في فقه اللغة . لبنان: دار العلم للملايين ،ط5، 1975

- صديق، يوسف:

21- المفاهيم و الألفاظ في الفلسفة الحديثة . تونس: الدار العربية للكتاب، ط2، 1980.

- صمود، حمادي:

22- التفكير البلاغي عند العرب . تونس: الجامعة التونسية ، 1981 .

- ضناوي ، محمد علي :

23- مقدمات فهم الحضارة الإسلامية. الجزائر : حراء الإعلامية، 1993

- طحان، ريمون و طحان، دينيز بيطار:

24- اللغة العربية و تحديات العصر . لبنان : دار الكتاب اللبناني،ط 2 ، 1984.

- عبد الرحمن ، عائشة :

25- لغتنا و الحياة. مصر: دار المعارف، 1971 .

- العروري، عبد الله :

26- ثقافتنا في ضوء التاريخ . المغرب : المركز الثقافي العربي ، د ت ، د ط .

- على، د . أسعد و الكك، فكتور :

27- جذور العربية فروع الحياة . دمشق : دار السؤال ، ط2، 1981

- الغزالي ، محمد:

28- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية . الجزائر: مكتبة رحاب، د ت، د ط

- غليون ، برهان :

29- اغتيال العقل . الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، 1990

- فك ، يوهان :

30- العربية:دراسات في اللغة و اللهجات و الأساليب، ترجمة د. رمضان عبد التواب . مصر: مكتبة الخانجي، 1400 هـ 1980 م.

- لبيب، طاهر:

31- سوسيولوجيا الثقافة . تونس : دار محمد علي الحامي للنشر ، د ت .

- مؤنس، د حسين:

32- الحضارة. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ط 2، 1997.

- محفوظ، محمد:

33- الإسلام ، الغرب ... و حوار المستقبل . المغرب: المركز الثقافي العربي، 1998.

- محمود، د. زكي نجيب:

34- تجديد الفكر العربي. لبنان: دار الشروق، ط6 ، 1986.

- الميلاد، زكي:

35- المسألة الحضارية. المغرب: المركز الثقافي العربي، 1999.

- هونكه، زيغريد :

36- شمس الله تسطع على الغرب . ترجمة و تحقيق د. فؤاد حسنين علي . الجزائر : مكتبة رحاب، 1986 م .

- ناصف، د. مصطفى:

37- اللغة و التفسير و التواصل. الكويت: المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، كانون الثاني 1995

- نحناح ، محفوظ :

38- الجزائر المنشودة . الجزائر : دار النبأ، 1999.

- ياسين، السيد:

39- العولمة و الطريق الثالث . القاهرة : ميريت للنشر و المعلومات ، 1998 .

- جارودي، روجيه :

40- العولمة المزعومة : الواقع ، الجذور ، البدائل. تعريب د.محمد السبيطلي.صنعاء: دار الشوكاني للنشر والتوزيع، 1998م.

- شومان، نعيمة :

41- العولمة بين النظم التكنولوجية الحديثة ،ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة .1998

- الجميل، سيار :

42- العولمة والمستقبل : إستراتيجية تفكير. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، د.ت، ط1

43- العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط : مفاهيم عصر قادم، ، بيروت:دار الفكر، ط1، 1997

- الجابري، د. محمد عابد :

44- قضايا في الفكر العربي المعاصر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،1997

- جاد، د. عبد الحسين :

45- وثيقة مؤتمر السكان والتنمية، رؤية شرعية، قطر: كتاب الأمة،53.

- منصور، أحمد:

46- سقوط الحضارة الغربية، رؤية من الداخل، ، دمشق: دار القلم،ط1998،1

- الحاجي، د. عمر :

47- العولمة أمام عالمية الشريعة الإسلامية، ، دمشق: دار المكتبي ، ط1، 1999

- شفيق، منير:

48- النظام العالمي الجديد.عمان: الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1992

- الجباعي، جاد عبد الكريم :

49- حرية الآخر بيروت: مكتب دراسات الوحدة العربية، 1995

- حنفي حسن، و العظم، صادق:

50- ما العولمة؟ ،دمشق: دار الفكر، ط2 ،2000

- ميكشيللي ،اليسكي :

60- الهوية، دمشق: دار الوسيم، 1993

- الحمد، تركي :

61- الثقافة العربية في عصر العولمة ، بيروت: دار الساقي، ط2، 2001

- غليون، برهان ،و أمين، سمير :

62- ثقافة العولمة وعولمة الثقافة دمشق: دار الفكر، 2000

ج * الدوريات:

- الثقافة العالمية. الكويت: عدد 85 نوفمبر - ديسمبر 1997
- المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، عدد 62 ، 1998
- مجلة المعرفة، سنة 38 عدد 432 تشرين الأول1999
- عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب.
- العربي، الكويت: وزارة الإعلام، العدد 461، أبريل 1997
- مجلة البيان ، شعبان 1419هـ ديسمبر 1999 15ربيع الأول 1421 هـ - يونيو 2000
- فكر و نقد، المغرب، السنة الثالثة، العدد ديسمبر 1999.
- المستقبل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. عدد138 ، حزيران، 1998، وعدد 249، تشرين الثاني، 1999. عدد 256 في 2000/6 عدد 252 شباط، والعدد 256، يونيو، 2000.
- نزوى ، العدد 22، أبريل 2000م
- الإسلام اليوم، عدد 16، 17، السنة 17،1421 هـ/2000
- جريدة الأسبوع الأدبي، العدد 820 تاريخ 2002/8/17
- المجتمع الكويتية، عدد 1404 و1406، يونيو 2000
- جريدة الشرق الأوسط، عدد 7439 في 1419/12/25هـ
- مجلة العلوم الاجتماعية، مجلد 26، عدد1
- المنهل، شوال، ذو القعدة، 1420 يناير، فبراير 2000
- المنطلق. عدد 78 - 79 ذو القعدة ذو الحجة ،1411
- جريدة الحياة، عدد 13473 في24/10/1420 هـ.

د * بحوث و دراسات:

- ابن الحاج، مصطفى:
1- اللغة العربية و تحديات القرن الحادي و العشرين . تونس : المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم 1996.
- ابن مراد، إبراهيم:
2- توليد المصطلح العلمي العربي الحديث. تونس: المنظمة العربية للتربية و العلوم،1996.
- الخطيب، أحمد شفيق:
3- الموصفات المصطلحية و تطبيقاتها في اللغة العربية . تونس : المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1996 .
- الخطيب، د. حسام:
4- اللغة العربية و المشكل اللغوي. تونس: المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم.
- دعبول ، موفق :
5- العربية و لغة العلم : الماضي و الحاضر و المستقبل . تونس : المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1996 .
- عرسان علي عقلة:
6- الفصحى و العامية و لغة الحوار المسرحي . تونس : المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1992 .
- الغذامي ، عبد الله محمد:
7- الإنسان بوصفه لغة، تونس: المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1996.
- الفحام، د شاكر:
8- تعريب التعليم العاملي و أثره في مستقبل اللغة العربية. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، 1996.

ح* مواقع أنترنت:

www .abdelmajid –miled .com
www.aljazeera. net
www.annabaa.org
www.krysstal.com
www.unesco.com

فهرس الموضوعات